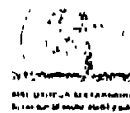
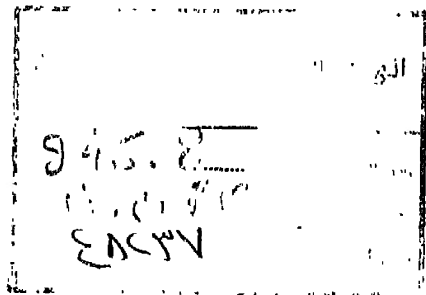


الشجر الأعظم على الأندلس في عصر المرابطين

وسقوط سرقطة في يد النصارى سنة ١١٨٢ هـ / ١١٨٨ م
مع أربع وثائق جديدة

تأليف
الدكتور حسين مؤنس



١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م - General Organization Of the Alexandria Library (GOAL)

Bibliotheca Alexandrina

مكتبة الثقافة الدينية

مكتبة الثقافة الدينية

المركز الرئيسي : ٥٢٦ شارع بورسعيد القاهرة

تليفون ٩٣٦٢٧٧ / ٩٢٢٦٢٠

”الشجر الأعلى“ الأندلسي

في عصر المرابطين

وسقوط سرقسطة في يد النصارى سنة ٥١٢ هـ / ١١١٨ م

مع أربع وثائق جديدة

للكتور حسين مؤنس

عثر على الوثائق التي أنشرها في ذيل هذا البحث
مصدر الوثائق في مخطوطين عربيين داني عليهما زميلي وصديقي
عبد العزيز الأهواني في مكتبة « ديرسان لورنزو » بالأسكوريال ، يحمل
أولهما رقم ٤٨٨ والثاني رقم ٤٨٩ مخطوطات عربية . وراجعت ما كتب عنهما
في فهرس المخطوطات العربية الذي وضعه الراهب الأوغسطيني اللبثاني
« ميخائيل الغزيري » بين سنتي ١٧٦٠ ، ١٧٧٠ باسم :

CASIRI: *Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialensis*. Madrid,
1760-1770, 2 vols.

والفهرس الحديث الذي وضعه « ديرنبورج » فلم أجد فيهما إلا أن هذين
المخطوطين يضمنان نماذج من النثر الفني الأندلسي في عهدي المرابطين
والموحدين ^(١) .

وعندما أخذت في دراسة هذه « النماذج » ، تبينت أنها تضم عدداً
طيباً من « صور » وثائق هامة تتصل بتاريخ « المرابطين » و « الموحدين »
في الأندلس ، وتبينت بعد قليل أن المادة التاريخية في الكثير منها جيدة
جديرة بالتحقيق والنشر والدراسة ، إذ أنها تضيف الى معلوماتنا طائفة طيبة

(١) راجع فهرس الغزيري المشار إليه تحت رقمي DXVI (ص ١٥١) ورقم
DXXXV بعد ذلك بقليل وفهرس ديرنبورج تحت الرقم المذكورين أعلاه .

من الحقائق الجديدة القيمة عن أعمال هاتين الأسرتين المغربيتين المجيدتين اللتين
لأنجد بين أيدينا من المعلومات المفصلة ما يعيننا على معرفة تاريخهما في الأندلس
معروفة صحيحة .

وليس إلى الشك سبيل في أن هذه «الصور» إنما نقلت عن الوثائق الأصلية
نقلاً صحيحاً أميناً ، لأننا نجد في صفحة ١٢٠ من المخطوط الأول شهادة
بصحة هذه الصور صادرة عن عالمين أندلسيين موثوق فيهما هما محمد بن يحيى
ابن سيد الناس وعمر بن محمد الأزدي المعروف بابن الشلوبين أو الشلوبيني .
ونص العبارة هو :

« قرأت أبعاض جميع ما تقيد فوق هذا ، ومنها ما أكلته ، وسمعت
أبعاض ذلك ، ومنها ما كل سماعه على الشيخ الفقيه الأستاذ أبي علي عمر بن محمد
ابن عمر بن عبد الله الأزدي الشهير بابن الشلوبين ، رضى الله عنه ، وأجاز لي
ما فاتني منها في روايته ، وناولني السفر بكتيبته ، وأباح لي ما في روايته منه ،
والإسناد إليه فيه ، والله ينفعه بذلك » .

« قاله وكتبه عبيد الله الفقير إليه محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى
ابن أبي القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد العزيز بن سيد الناس اليعمرى ،
وفقه الله حامداً ربه ومستغفراً ذنبه ومصلحاً على نبيه الكريم وعلى آله » .
« وذلك كله في عقب شهر ذى قعدة سنة ثلاث وأربعين وستمائة » .
« المكتوب فوق هذا صحيح : قاله عمر بن محمد الأزدي في التاريخ » .
ومما يدل على أن النسخة التي بين أيدينا هي التي راجعها « ابن الشلوبين »
بنفسه أن اسمه وارد في السطر الأخير منها على هيئة توقيع ، وذلك في ذاته
أمر عظيم القيمة ^(١) .

ثم إننا سنلاحظ أن معلوماتنا التاريخية تؤيد كل ما تشير إليه الوثائق
تأييداً تاماً .

(١) ظاهر من هذه العبارة أن مخطوطتنا أصلية وأنب ترجع إلى سنة ٦٤٣ هـ .
مما يزيد في قيمتها . وهي مكتوبة بخط مغربي غير القراءة في مواضع كثيرة ، ولكنها
في حالة جيدة .

لهذا عمدت إلى ترتيب وثائق هذين المخطوطين ودراستها تمهيداً لنشرها ،
ولما كانت تتناول مواضيع مختلفة تتفاوت أهمية فكل وثيقة منها تحتاج
إلى دراسة خاصة مفصلة . وقد أخذت في الصفحات التالية أربع وثائق تتعلق
بموضوعين اثنين : (الأول) موقعة أفليش التي انتصر فيها المرابطون على جيوش
القونن السادس صاحب ليون وقشتالة في شوال سنة ٥٠١هـ / ٣٠ مايو ١١٠٨م
و (الثاني) وقوع سرقسطة في أيدي القونن الأول ملك أرغون وقشتالة
وليون في ٥١٢ هـ / ١١١٨ م . واستغاثة أهلها بالمرابطين .

ولما كانت الوثائق أدبية الطابع ، تغلب على أسلوبها المحسنات البديعية ،
فإن استخراج الحقائق التاريخية منها كان أمراً عسيراً . وكان لابد من مقدمة
تاريخية عن المرابطين في الأندلس وتاريخ « الثغر الأعلى » الأندلسي في عصرهم
حتى تتضح الاشارات التاريخية الواردة في الوثائق ، وحتى يكون من الممكن
الاستفادة منها فائدة صحيحة .

هذا ولا يفوتني كذلك التنبيه على القيمة الأدبية لهذه الوثائق من حيث
هي نماذج للنثر الأندلسي في صورة من أزهى صوره ، ولا غرابة في ذلك ،
فكتابها ، وهم ابن شرف وابن خلصة وابن أبي الحصان يعنون ذروة من ذرى
البلاغة العربية ، ولم يصل إلى شأوهم في هذا الباب إلا قلائل في المشرق والمغرب .

* * *

يعتبر القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)
المرابطون في الأندلس عصر اليقظة الأخيرة في تاريخ الأندلس الاسلامي ،
عصر الصحوة الذي سبق عصور الاضمحلال المتصل التي تبدأ من أول
القرن السابع الهجري ، وهي صحوة قصيرة عنيقة سبقتها إرهابات أنبأت
عن عود الاسلام الأندلسي إلى النصر والعزة بعد ذلك الانكماش المستمر الذي
عناه طوال القرن الخامس الهجري عقب زوال الخلافة الأموية الأندلسية .
ومن هذه الارهابات وأظهرها دلالة انتصار « الزلاقة » الذي أحرزته
القوات المرابطية الأندلسية في سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، بعد عام واحد
من سقوط طليطلة في يد القونن السادس ملك قشتالة (٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م) ،

فكان ظفر الاسلام بهذا النصر الفريد بعد تلك الكارثة القاصمة إيذاً نا بتحول حاسم في مجرى تاريخ الغرب الاسلامي كله ، فقد وقف تيار الغزو النصراني ، وبدأت فترة استرداد إسلامية ، استعادت فيها جيوش المرابطين كثيراً مما فقدته المسلمون خلال السنوات الأخيرة الماضية ، وارتفعت الجبهة الإسلامية من مجرى « الوادي الكبير » إلى مجرى « تاجه » في ناحية الغرب ، واقتربت جيوش الاسلام من طليطلة وأخذت تنوشها وتحاول استعادتها ، وبدأ بوضوح أن جبهة الاسلام في « شرق الأندلس » لن تلبث أن تعود إلى ما كانت عليه قبل أن يستولى السيد القمبيطور على بلنسية (٢٨ جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ / ١٥ يونيه ١٠٩٤)^(١) ويهدد نواحي سرقسطة ومرسية وبلاد الشرق كلها . وعند ما توفي يوسف بن تاشفين في أول المحرم سنة ٥٠٠ هـ (٢ سبتمبر سنة ١١٠٦ م) ترك لابنه علي بن يوسف دولة واسعة الأطراف يصفها ابن أبي زرع بقوله : « وملك جميع بلاد القبلة من سجلماسة إلى جبل الذهب في بلاد السودان ، وملك جميع بلاد الأندلس شرقاً وغرباً ، وملك الجزائر الشرقية وميورقة ومنورقة ويابسة ، وخُطب له على أُلني منبر ونيف وثلاثمائة منبر ، وملك من البلاد ما لم يملكه والده ، لأنه وجد البلاد هادئة والأموال وافرة ، والملك قد توطد والأمور قد استقامت »^(٢) .

وقد أساء « دوزي » الحكم على علي بن يوسف كما أساء الحكم على المرابطين عامة ، واعتمد في حكمه هذا على إشارات يشوبها الهوى أوردها عبد الواحد المراكشي في « المعجب »^(٣) وما زال يلح في تشويه صورته حتى جعل حكمه من أظلم وأسوأ ما عرفه المغرب الاسلامي : لاعلم ولا أدب ولا رفاة

(١) تحدد الروايات الإسلامية تواريخ مختلفة لسقوط هذا البلد ؛ ولكن تحديد
 من الأبار الذي أخذنا به هنا هو أدقها : الحلة السراء ، ص ١٨٩ ؛ وانظر مناقشة
 دوزي للتواريخ : Dozy, Recherches, II. pp. 1, X VIII sqq.
 (٢) ابن أبي زرع ، روض القرطاس (طبعة نوربرج ١٨٤٣) ص ١٠٢
 (٣) راجع رأي عبد الواحد المراكشي في « المعجب في تلخيص أخبار المغرب »
 (طبعة القاهرة ١٩١٤) صفحات : ٧٧ ، ٩٥ ، ٩٦

ولارخاء^(١). مع أن الواقع يخالف ذلك كله ، فقد كان الرجل أندلسي الروح متفتح النفس ، أحاط نفسه بطائفة من أعظم من عرف الأندلس من أهل الفكر والأدب ، ويكفي أن نذكر منهم أبا بكر المعروف بابن القصيرة وأبا القاسم بن الجدد ، وابن القبطونية ، وأبا محمد عبد المجيد بن عبدون^(٢) ، ومروان بن أبي الحصل الذي يكاد يكون أعظم ناثر عرفه الأندلس قبل لسان الدين بن الخطيب ، وأخيل بن أدريس الرندي^(٣) ، ويكفي أن نذكر كذلك أن الفيلسوفين الأندلسيين أبا الوليد بن رشد^(٤) ، وأبا العلاء بن زهر^(٥) ، كانا من أصحاب علي وجلسائه وقد أشرف الثاني منهما على تربية ابنه تميم وكان أشبه بالوصي عليه أثناء إقامته في قرطبة نائباً عن أبيه في حكم الأندلس^(٦). وكانت أحوال الأندلس على رأس هذه المائة السادسة على حال من السوء كادت تضيق معها آثار انتصار « الزلافة » وثمرات ما بذله يوسف ابن تاشفين من الجهد في استنقاذها من آثار الفوضى التي شاعت فيها بعد سقوط الخلافة الأموية . ولم يلبث هذا الأمير اللتوني الكبير أن استبان أن تركه ملوك الطوائف في إماراتهم حري بأن يذهب بآثار كل جهد يبذله في استنقاذ البلاد ، فعول على خلعهم عن إماراتهم وتركيز السلطان كله في يده وأيدى رجال من المرابطين^(٧) . فجاز إلى الأندلس جوازه الثالث سنة ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ، واستفتى الفقهاء في أمر هؤلاء الأمراء ، فأفتوه بضرورة

(١) Dozy : *Musulmans d'Espagne* (2^e éd.) p 155

(٢) المراكشي ، المعجب ، ص ٩٤

(٣) ابن الأثير ، الحلة السراء (طبعة دوزي) ص ٢٢٢

(٤) انظر : الحلال الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، مؤلف مجهول (طبعة علوش ١٩٣٦) . ص ٧٥ — ٧٦

(٥) المراكشي ، المعجب ، ص ٧٥ ، والمقرئ ، نفح الطيب (طبعة أوروبا) ج ١ ص ٢٨٧ وانظر المناقشات الطويلة التي يوردها صاحب الحلال الموشية حول هذا الموضوع ص ٣٠ وما بعدها .

(٦) لدينا وثيقة هامة في المخطوط الذي أخذت منه الوثائق التي أنشرها هنا ، ص ١٧٤ من المخطوط رقم ٤٨٩

(٧) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٦٨٩

خلعهم^(١) بل يذهب ابن خلكان وابن خلدون إلى أنه كتب إلى ققهاء المشرق — وفي مقدمتهم الغزالي — يستشيرهم في هذا الأمر، فأفتوه بضرورة تخليص الأندلس من أمرائها هؤلاء. ويفهم من بعض الروايات الأندلسية أن يوسف ابن تاشفين إنما أتى إلى الأندلس طامعاً فيها من أول الأمر^(٢)، ولكن الغالب أن فكرة خلع هؤلاء الأمراء والاستيلاء على البلاد جملة إنما نبئت في ذهنه بعد موقعة الزلاقة وما رأى من فساد أمر الكثير منهم وسوء تصرفهم في أمور رعيّتهم وتقصيرهم في معاونة جيوشه أثناء النضال مع النصارى، بل إنه استيقن أن بعضهم كان يتآمر مع أمراء النصارى على المرابطين في هذه اللحظة الحاسمة^(٣)، وعلى أي الأحوال فقد تصرف يوسف بن تاشفين في هذا الأمر بحكمة وحذر، وبدأ بالأمير عبد الله آخر أمراء بني زيري أصحاب غرناطة، فعزله وأخذ البلد منه وأرسله إلى إفريقية. ثم عاد يوسف إلى إفريقية تاركاً قائده «سير بن أبي بكر» ليكمل عزل بقية الأمراء والاستيلاء على ما يدهم من البلاد والحصون، وقد أتم سير هذه المهمة خلال بضعة شهور، فلم يفته عام ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م حتى كانت إمارات الطوائف كلها — عدا سرقسطة — قد زالت من الوجود^(٤)، وعاد ما بقي من الأندلس الأسلامى موحداً من جديد بيد الأمير المرابطي سير بن أبي بكر الذي اتخذ قرطبة مركز أعماله^(٥)، وهكذا عاد هذا البلد إلى مركزه الممتاز بين البلاد بعد أن فقدته طوال عصر ملوك الطوائف.

(١) ابن خلدون، العبر (طبعة يولاق) ج ٦ ص ١٨٧

(٢) انظر: المراكشي، المعجب، ص ٧٤

(٣) ابن خلدون، العبر، ج ٦ ص ١٨٧، Dozy, *Musulmans d'Espagne*: III, 139 وراجع التفاصيل التي يوردها ليفي بروفنسال عن علاقات المعتمد بن عباد مع الفونس السادس ملك ليون وقشتالة في مقال:

La "Mora Zuïda" fille d'Alfonse VI et leur fils l'Infant Don Sancho, ds: *Hespéris* XVIII, 1934, pp. 1-8.

(٤) المراكشي، المعجب، ص ٧٥ وما يليها. وابن خلدون، العبر، ج ٦ ص ١٨٧

(٥) الحلل الموشية، ص ٥٩

ولا يتسع المقام هنا لتفصيل أمر النظام الذي وضعه يوسف بن تاشفين للحكومة الأندلس ، والمعلومات التي لدينا عن ذلك قليلة جداً على كل حال ، وكل ما نستطيع قوله هو أن المرابطين تركوا الشؤون المدنية بيد الأندلسيين كما كان الحال عليه ، واحتفظوا لأنفسهم بشؤون الحرب والدفاع ^(١) ، وكان النائب عن يوسف بن تاشفين في حكومة الأندلس قائد عسكري هو سير بن أبي بكر ، ثم استبدل به بعد قليل ابنه أبا الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين ^(٢) ، وكان التفاته كله موجهاً إلى الحرب وحدها ، وكانت تعاونه هيئة كبيرة من القواد معظمهم من أهل بيته أو من كبار رجال القبائل الممتونية ، وسيكون لبعضهم من أمثال أبي عبد الله بن الحاج وأبي زكريا بن واسينو وجرور الحشمي ، وأبي عبد الله مزدلي شأن عظيم في الحروب مع النصاري في الأندلس ، ولم تكن القوة العسكرية التي وضعها يوسف تحت تصرف نائبه بالكبيرة ، فقد قدرها صاحب « الحلل الموشية » بسبعة عشر ألف فارس « موزعة على أقطار معلومة ، يكون منها بأشبيلية سبعة آلاف وبقرطبة ألف فارس ، وفي المشرق أربعة آلاف فارس ، وباقي العدد على ثغور المسلمين للذب والمراقبة في الحصون المصاوبة للعدو » ^(٣) وليس من المعقول أن تكون هذه هي عدة الجيش المرابطي المقيم في الأندلس ، لأننا نرى عشرات الألوف من جنودهم في كل ناحية ، والمنطوق أن هذا هو عدد الفرسان فقط ، وأنه كان إلى جانب هؤلاء الفرسان أعداد عظيمة من الرجال . وقد كسب المرابطون برجالتهم المنظمة القوية كل انتصاراتهم الكبرى في الأندلس ^(٤) . ولسنا نفهم السر في أن يوسف اختص ناحية إشبيلية بسبعة آلاف مع أن الخطر عليها

(١) ليس لدينا عن هذا الموضوع غير بضعة سطور متفرقة يوردها صاحب الحلل الموشية ، انظر صفحات : ٦٣ ، ٦٧ ، ٦٩

(٢) الحلل الموشية ، ص ٦٧

(٣) الحلل الموشية ، ص ٦٥ ، وفي النص أخطاء كثيرة أصلحتها هنا .

(٤) راجع تفاصيل موقعة الزلاقة مثلاً في : الروض المطار في خبر الأقطار لابن عبد المنعم الحميري (طبعة لبي بروقتسال ، القاهرة) مادة زلاقة ، وهو الأصل الذي أخذ عنه المقرئ وعبد الواحد المراكشي . وانظر التفاصيل الواردة عن واقعة ألقليش في وثيقة رقم ١ المرفقة بهذا البحث .

لم يكن جسيما ، أما الخطر الحقيقي فكان على قرطبة وإقليمها ، أى ناحية الوسط ، ومع ذلك فخصتها من الحماية لم تزد على ألف فارس ، وكان الشرق فى ذلك الحين أكثر النواحي استهدافا للهجوم من ناحية نصارى الشمال ، وكانت حامية المرابطين فيه رغم ذلك أربعة آلاف فارس لحسب ، ويبدو أن هذه كانت أعداد القوات الثابتة المقيمة ، ولا شك فى أنه كانت ترسل اليها عند اللزوم قوات أخرى تؤيدها ، وسنرى مصاديق ذلك فيما يلى من الحديث .

وقد لاحظنا أن نائب يوسف بن تاشفين استنزل أمراء الأندلس أجمعين عدا صاحب سرقسطة أبى جعفر أحمد بن هود الملقب بالمستعين بالله ، فـال الذى حدا به إلى اختصاص هذا الأمير بالرعاية ، وهو لم يخرج عن أن يكون أميراً من أمراء الطوائف ، لا يفترق عن المعتمد صاحب إشبيلية أو المتوكل صاحب بطليوس فى كثير ؟ لـكى نجيـب على هذا السؤال ينبغى أن نلقى نظرة على الحالة العامة فى هذا القطر الكبير من أقطار إسبانيا الإسلامية الذى كان يعرف « بالثغر الأعلى » .

الثغر الأعلى وسرقسطة عند ما انقرط عقد الخلافة الأموية على رأس المائة فى عصر المرابطين الخامسة للهجرة ، كان يحكم هذه الناحية رجل من أنصار المنصور بن أبى عامر يسمى أبو الحكم المنذر بن يحيى ، وكان فارساً جلدأ ذا خبرة ودراية بأمور هذا الثغر المتطرف من بلاد المسلمين^(١) ، وكانت بينه وبين جيرانه ملوك أرغون من النصارى علاقات وذر موصولة ، وكان هو يعتبر نفسه من أنصار ملك أرغون وأتباعه ، وكان فى نفس الوقت سيداً متبوعاً للكثيرين من أشرف النصارى الذين كانوا يملكون الأراضى والحصون بهذه النواحي الجبلية الوعرة^(٢) ، فلما مات فى سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م خلفه ابنه يحيى بن المنذر ، ومضى يسوس الأمر على سنن أبيه ، وابتعد بنفسه

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، الجزء الثالث (طبعة لى بروفنسال)
س ١٧٥ — ١٧٦ ، ابن الأبار ، أعمال الأعلام (طبعة لى بروفنسال سنة ١٩٣٤)
س ٢٢٦ — ٢٢٧ ، وانظر الخريطة المرفقة لتعرف حدود الثغر الأعلى .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ ، س ١٧٦

وبناحيته عن الاضطراب العنيف الذى ساد الأندلس كلها فى تلك السنوات ، فسلمت له بلاده ، وأقام فى دعة لا يكاد ملوك أرغون يدبرون له شرا حتى مات سنة ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م^(١) ، وخلفه ابنه المنذر فأقام فى الامارة ثلاث عشرة سنة انتهت سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٩ م ، فبدأ سلطان المسلمين فى هذا الركن القصى يتزعزع ، وبدأت أطباع أمراء أرغون وأكناد برشلونة تتجه نحو سرقسطة وأقليمها ، وكان هذا الإقليم يضم حوض «إبره» الأعلى كله ، وفيه من الحصون وكبار المدائن — عدا سرقسطة — «قلعة أيوب» و«درؤقة» و«وشقة» و«بربشتر» و«مدينة سالم» و«لوجرونيو» Logroño و«صوربة» Soria و«ترويل» Teruel و«إفراغة» Praga^(٢) وكان هذا من أوسع إمارات الطوائف امتداداً ، وكان أهل هذا الاقليم الواسع — مسلمين ونصارى — يعيشون فى ظل هذه الأسرة فى رخاء وأمن .

وكان من بين أتباع «بنى يحيى» هؤلاء أسرة عربية ترجع فى أصلها البعيد إلى قبيلة جذام اليمنية ، هى أسرة «بنى هود» وكانت تملك مدينتي «لاردة» و«نطيلة» Tudela ، وكان يمثلها فى ذلك الحين سليمان بن محمد بن هود ، فلم يكده يلمح لخلل الاضطراب تنوش سرقسطة حتى وثب من حصنه ودخلها بأتباعه وحاز الاقليم كله ، وتلقب «بالمستعين بالله» على نحو ما كان يفعل معاصروه من ملوك الطوائف (٤٣١ هـ / ١٠٤٠ م)^(٣) ، وأصبحت «دولة بنى هود» فى سرقسطة والثغر الأعلى كله من أوسع إمارات الطوائف رقعة وأقواها وأعزها جانبا ، واستطاعت أن تحول بين الامارات النصرانية فى هذا الركن الشمالى الشرقى وبين الانسياح إلى بلاد المسلمين كما حدث فى «الموسطة» (إقليم طليطلة) و«الغرب» (إقليم بطليوس وماردة) .

(١) انظر التفاسيل التى يقدمها ابن حيان وابن خلدون عن سياسة المنذر وابنه يحيى مع جيرانهما من النصارى والمسلمين ، ذيل ١٣ ، ١٤ فى : Dozy : Recherches, I. pp. XXXIV sqq.

(٢) الحلال الموشية ، ص ٦٠ وقد اكملت هذه القائمة من كتاب : Prieto Vives, Los Reyes de Taifas (Madrid. 1926), p. 46.

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٣ ص ٢٢٢ ، ابن الأبار ، أعلام الأعلام ،

ولم يكن الخطر النصراني على الأندلس الاسلامي من هذه
 بنو هود الناحية بعيداً ولا قليلاً في ذلك الحين ، فقد كانت حدود
 إمارة سرقسطة تتصل مباشرة بحدود ممالك وإمارات إسبانيا النصرانية جميعاً ،
 وقد أرادت المقادير أن يكون على رأس كل منها في تلك الحقبة من تاريخ
 الأندلس أمير قوى طامع في زيادة بلاده على حساب الخلافة الأموية الذاخبة ،
 فكانت تصاقبها من الشمال أربع إمارات نصرانية هي : كوثنية « قطلونية »
 يحكمها أمير واسع المطامع متصل النشاط هو رامون بيرنجير الثاني
 (١٠٣٥ — ١٠٧٦ م) ومملكة أرغون . وكان يحكمها راميرو الأول
 (١٠٣٥ — ١٠٦٣ م) وكان لا يكف عن اجتياح حدود سرقسطة وانتهاب
 ما يصل اليه من أرضها ، وبين هاتين المملكتين الكبيرتين نجد إمارتين صغيرتين
 هما باليارس (Pallars) وشرطانية (Cerdania) وسيقف صاحبها إرمنجول
 الثالث (Ermengol III) ورامن (Ramon) الى جوار قطلونية وأرغون
 فيما يلي من الاحداث . أما في الشرق فكانت حدود سرقسطة تتصل بحدود
 مملكة نبرة (Navarra) وكان ملكها غرسية الثاني (Garcia II)
 (١٠٣٥ — ١٠٥٤ م) من أشد الطامعين في بلاد المسلمين ، ثم مملكة ليون (Leon)
 أكبر ممالك إسبانيا النصرانية وأشدّها خطراً على المسلمين في ذلك الحين ،
 وسيكون للملك إذ ذاك فرناندو الأول (١٠٣٥ — ١٠٦٥ م) وأولاده
 من بعده حصة الأسد في تراث الأندلس الاسلامي ، وكان من حسن حظ
 إمارة سرقسطة وبلاد شرق الأندلس كلها أن كل جهود ملوك ليون ستنتجه
 نحو إمارتي بطليوس وطليلة فترة طويلة من الزمان ^(١) .

ومن ثم كان العبء الملقى على أكتاف بني هود ثقيلاً لا يكاد ينهض به
 إلا الجهد المتصل ، ولم يكونوا يستطيعوا أن يقفوا من جيرانهم النصراني
 موقف العدو المناجز ، بل كان لابد لهم من المصانعة والمداورة حتى يخلصوا
 ببلادهم من الشر المحيق . بل سترام يقفون موقف الحياد عند ما يستولي
 ألفونس السادس ملك ليون على مملكة طليطلة (سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٥ م)

(١) BALBUENA: *Historia de España* (1927), II, pp. 295-301.

وسيقفون الى جانب « السيد القنيطور » عند ما يهاجم بلنسية ويستولى عليها
ويذيق أهلها العذاب بعد ذلك بقليل .

وعند ما توفي أبو أيوب سليمان المستعين في سنة ٤٤١ هـ / ١٠٥٠ م استهدفت
إمارة سرقسطة لخطر جسيم ، إذ تقاسم بلادها أبنائوه الأربعة ، وجعل كل منهم
ناحيته إمارة مستقلة ، فانمرد أبو جعفر أحمد سرقسطة وتلقب بعماد الدولة
المقتدر بالله . واستقل أبو عمر يوسف بلاردة وتلقب بعماد الدولة المظفر ، وأخذ
محمد قلعة أيوب وتلقب بعضد الدولة ، أما الرابع ، المنذر ، فقد اكتفى بلقب الخاحب
وفاز بتسطيطه وتسميه المراجع لب^(١) . وهي كلمة أندلسية معربة عن «لوبيو»
(lubo) الاسبانية ومعناها الذئب . ومضى الاخوة يحتربون فيما بينهم ، واستمروا
على ذلك سنتين استطاع خلالها أحمد المقتدر بالله أن يستولى على ما كان بيد
أخويه محمد والمنذر ، واستمر يساجل أخاه يوسف حتى غلبه على بلاده
في أواخر أيامه حوالي سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م . فعادت وحدة الامارة
على يديه ، بل استطاع أن يضيف اليها أراضى جديدة اذترعها من جيرانه
النصارى والمسلمين على السواء . فاستولى على طرطوشة (٤٥٣ هـ / ١٠٦٢ م)
ودانية (سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٧٥ م) . وحاز جزءاً من كورة طركونة (Tarragona)
وأطرافاً من ببلونة (Pamplona) ونواحي من لقنت (Alicante) وبلنسية
وكان أصحابها في حالة بالغة من الضعف والعجز عن ضبط إمارتهم^(٢) .

وأحمد المقتدر بالله هذا هو أقوى أمراء بني هود وأوسعهم في تاريخ
فترة الطوائف ذكرآ بعد المعتمد بن عباد ، وليس الى الشك سبيل في أنه كان
أقدرهم على مغالبة شدائد هذه الفترة القاسية ، وأمرهم في النجاة ببلده وعرشه ،
وأجراًهم على مناجزة جيرانه من ملوك النصارى وفرسانهم ، وكانت سرقسطة

(١) ابن حيان برواية ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ص ٢٢٤ ، وابن الخطيب ، أعمال
الأعلام ، ص ١٩٧

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٨

(٣) استخراج بريتنو يبيس هذه التواريخ من النيات ، راجع بحثه القيم عن ملوك

الطوائف : *Puerto Vives : Los Reinos de Taifas*, pp. 47 seq.

في أيامه درة الاندلس الاسلامي ، فقد ابنتى فيها « قصر الجعفرية » الباقي الى اليوم وقصر الذهب الذي قال فيه شعراء الطوائف شعراً كثيراً .

وتوفي أحمد المقتدر بين سنتي ٤٧٤ و ٤٧٥ هـ / ١٠٨١ و ١٠٨٢ م فانقسمت إمارة سرقسطة من جديد ، واقتسمها ابنه يوسف والمنذر ، فأما يوسف فقد تلقب بالحاجب المؤتمن ، واستقل بمدينة سرقسطة وغربي الامارة كله ، وانقرض الثاني -- المنذر -- بطرطوشة ودانية والجزء الساحلي من الامارة ، وتلقب بالحاجب عماد الدولة ^(١) ، واستمرت الحرب بين الأخوين ، ولم ينجح أوارها حتى بعد وفاة يوسف المؤتمن سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م ، فقد نهض بأوزارها من بعده ابنه أحمد بن يوسف بن هود ، ومضى يحارب عمه المنذر ، وجعل كلاهما يستعين على خصمه بمن استطاع الاستعانة به من ملوك النصارى . وفي عهد يوسف هذا أقبل السيد القنيطور إلى سرقسطة لاجئاً الى أميرها بعد أن نفاه القونس السادس ملك ليون من بلاطه ، وقد انضم السيد الى جيوش يوسف المؤتمن ومضى يحارب أعداءه ، واستطاع أن ينزل بالكونت رامون بيريجير الثاني صاحب قطلونية هزيمة قاسية عند « المنارة » (Almenara) وقد وقع الكونت في أسر ابن هود في هذه الموقعة ، وكان لها أثر بعيد في تاريخ « السيّد » وشرق الأندلس كله بعد ذلك . وقد أقام السيد في سرقسطة حتى سنة ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م ، وكانت هذه السنوات بعيدة الأثر في نفسه وتكوينه ^(٢) ، ويبدو أن لقب « السيّد » الذي لزمه بعد ذلك طول حياته كان من آثار هذه الفترة ، لأنه كان يقود جنوداً من المسلمين ، فكانوا ينادونه « يياسيدى » ، فلما عاد الى خدمة القونس السادس لزمته هذه التسمية ، وصار جنده النصارى ينادونه بلفظي (mio Gid) .

وفي هذه السنوات كان ألفونس السادس صاحب قشتالة دائم الطمع في سرقسطة وبلادها ، ولولا يقظة يوسف وأخيه وأهبيتهما للدفاع عن بلادهما في كل لحظة لضاعت الامارة قسمة بين قطلونية وأرغون

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٩

LEVI PROVENÇAL, *Le Côté de l'histoire dans l'Islam d'Occident* (٢)
(Paris 1948), pp. 170 sqq.

وقشتالة، ويكفي أن نذكر حادثاً صغيراً يدلنا على مقدار ما كانت هذه الامارة الاسلامية تتعرض له من الاخطار : فقد كان أبو جعفر أحمد — الذي تحدثنا عنه — قد سجن يوسف المظفر أخاه بعد أن تغلب عليه ، وأودعه أحد حصون روضة (Ruoda). وأقام الرجل سجيناً في ذلك الحصن بعد وفاة أخيه، فلما كانت أيام ابني أخيه هذا — يوسف وأحمد — فر من سجنه في أوائل سنة ٤٧٧ هـ ١٠٨٤ م ، وذهب يحتمي بألفونس السادس ملك قشتالة، ومات عنده بعد قليل ، فزعم ألفونس أن المظفر نزل له قبل موته عن نصيبه الذي تغلب عليه ، وأسرع بالفعل مع نفر من رجاله فيهم ابن عمه راميرو ونحور وروطة، وكاد البلديقع في أيديهم ، لولا أن يوسف المؤمن وحليفه القنيطور وضعاً لألفونس ورجاله كميناً في خانق ضيق على الطريق ، فلم يكادوا يتوسطونه حتى انتهات عليهم الحجارة فهلك منهم نفر ولم ينج ألفونس نفسه إلا بصعوبة ^{١١} ، وأراد « السيد » أن يبرئ نفسه من تهمة الاشتراك في هذه المؤامرة ، فرجع إلى ألفونس واعتذر إليه وصالحه وعاد إلى خدمته . وهذا الحادث يدلنا على مقدار يقظة ألفونس وتطلعه لما في أيدي المسلمين ، ويدلنا على يقظة يوسف المؤمن وشدة حذره ، ويدلنا كذلك على أن الصراع بين الجانبين لم يكن صراع حروب ومواقع فحسب ، بل كان كفاح مؤامرات وحيل ، ولو قد غفت عين أحد أمراء سرقسطة لحظة لاجتماعها ألفونس كما ابتلع طليطلة سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، دون كبير مشقة .

وتوفي يوسف المؤمن في ذلك العام ، وصار الأمر في سرقسطة لابنه أحمد على ما قلناه ، فتلقب بالمستعين ، رضاعف المهمة في الحفاظ على ما بيده ، ذلك أن أطاع ألفونس السادس صاحب ليون وقشتالة فيما جاوره من بلاد المسلمين زادت بعد استيلائه على طليطلة - فعول على الاستيلاء على سرقسطة وأقبل يحاصرها ، واستعد أحمد المستعين لهذا الحصار وتحالف مع حميه مروان بن عبد العزيز صاحب « بلنسية » ، واستمر الحصار حيناً : وتخرج مركز البلد ومن فيه ،

PHILIP V. DE, *Los Reyes de Taifas*, p. 48.

(١١)

R. MENÉNDEZ PIDAL : *La España del Cid* (1929), II, p. 571.

ولم يتقدم إلا نزول المرابطين الأندلس^(١) في ذلك الحين ، فرفع ألفونس
الحصار وأسرع الى بلده لتحصينها . ثم كانت وقعة « الزلاقة » Saerajas
في رجب ٤٧٩ هـ / سبتمبر ١٠٨٦ م وانهمز ألفونس تلك الهزيمة القاصمة
التي أبعدت خطره عن البلاد الاسلامية الأندلسية كلها الى حين^(٢) .

فلما استقر يوسف بن تاشفين في الأندلس وأقبل ملوك الطوائف يسترضونه
ويقدمون له المساعدات والألطف ، كان أحمد المستعين أكثرهم تقربا اليه . وعرف
يوسف حرج مركز المستعين وضعوبة موقفه أمام ملوك النصارى ، وانعقدت
بينهما أواصر صداقة سيكون لها أثر بعيد في مستقبل « سرقسطة » ، وحينما
سامت العلاقات بين يوسف وملوك الطوائف ، ومضى ينزعهم عن إماراتهم
واحداً بعد واحد ، أسرع المستعين فأرسل ابنه عبد الملك عماد الدولة ،
ليؤكد لأمر المسلمين يوسف بن تاشفين ولأهله وإخلاصه لقضية الاسلام
في الجزيرة ، وليبين له أنه يرى من تهمة التآمر مع النصارى على جيوش
المرابطين ، وكتب اليه كتاباً ، وردَّ عليه يوسف بن تاشفين بكتاب حفظت لنا
المراجع صورته ، يؤكد له فيه حسن ظنه فيه وثقته من إخلاصه للمسلمين ،
ويؤمِّنُه على بلاده ويعده بالمعونة^(٣) . ولا نزاع في أن يوسف بن تاشفين قدّر
خطورة الدور الذي كان أمراء « سرقسطة » يقومون به في تلك الفترة الحافلة
بالخاطر ، فقد كانوا يقفون كالحائل بين إمارات النصارى وما يليها من بلاد
المسلمين في شرق الأندلس^(٤) ، ثم إنهم على رغم اتصالاتهم الكثيرة بالنصارى

(١) أخبار الثغر الأعلى في هذه الفترة موجزة بإيجازاً شديداً عند مؤرخينا المسلمين ،
فلم يكن هناك بد من الاعتماد على المراجع النصرانية القديمة : راجع عن أحداث سرقسطة
في ذلك الحين :

Primera Crónica General (éd. M. Pidal, 1906) p. 538 à sqq.
Annales Toledanos Primeros (España Sagrada, XXIII, p. 385 sqq.
Historia Roderici apud : M. Pidal : *España del Cid*. op. p. 558.

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠٠

Annales Complutenses en España Sagrada XXIII. p. 314.

(٣) ورد نص هذين الكتابين في صورتين لا تختلف إحداهما عن الأخرى إلا في ألفاظ

قليلة : ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠٠ — ٢٠١ ، الحلل الموشية ، ص ٦٠

(٤) هكذا قال المستعين بن هود في كتابه إلى يوسف بن تاشفين ، ولم يصلنا نص
كتابيه وإنما وردت خلاصته فقط في المرجعين المشار إليهما في الهامش السابق .

وعلاقات الولاء التي كانت تربطهم بهم بين الحين والحين - لم يحالفوا أحداً منهم على المسلمين ، ولم يلقوا من جيوش المرابطين موقف الخيانة والتفاس الذي وقفته إشبيلية وغرناطة ومالقة أثناء الصراع العنيف الذي دار بينهم وبين النصاري على حصن « لبيط Alalá » بعد موقعة الزلاقة بقليل ^(١).

وفي أثناء اشتغال المرابطين بأمراء الطوائف انتهز سانچو راميرز (Sancho Ramirez) الفرصة وهاجم إمارة سرقسطة هجوماً عنيفاً وانتزع منها منشون (Monzon) سنة ٤٨١ أو ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م ، ثم تقدم فحاصر وشقة (Huesca) ومات محاصراً لها ، فمضى ابنه « بدرو » الأول يلج عليها بالحصار حتى استولى عليها في ذي حجة سنة ٤٨٩ هـ / نوفمبر سنة ١٠٩٦ وقد دافع أحمد المستعين عن « وشقة » دفاعاً مجيداً دون جدوى ^(٢) ، وقد وصف لنا ابن الخطيب معركة الكراز (Alcoraz) التي انتهت بسقوط المدينة تصويراً يعطينا فكرة عن عنف الصراع الذي كان محتتماً خلال هذه السنوات كلها بين المسلمين والنصارى حول مدائن سرقسطة والثغر الأعلى ، قال : « وفي سنة ٤٨٩ نازل العدو مدينة وشقة من عمالة المستعين وضميقوا بها ، وحشد المستعين جيوشاً من المسلمين وحمل إليها الميرة ، والتقى الفريقان ووقعت الحروب من لدن طلوع الشمس الى غروبها حتى كادت تأتي على الفريقين . وترك ابن هود المصاف على حاله وقصد مضربه لما ساء ظنه بيوم الكريهة ، فرفع ما كان به من المال ثم كر الى مقامه ، وأبلى الى أن كانت الهزيمة على المسلمين في أخريات ذي القعدة من العام . فقُتد من الناس ما يناهز اثني عشر ألفاً ، واتمس أهل « وشقة » الأمان لثلاثة أيام من يوم الهزيمة » ^(٣) وقد استنصر المستعين أثناء هذا الصراع بحليفه ألفونس السادس صاحب ليون ، فأرسل إليه بعثاً قوياً شد أزره ، وتمكن المسلمون

(١) الحلل الموشية ، ص ٥٤ — ٥٦

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٩

BALLESTROS : *Historia de España* : II. p. 323

(٣) أعمال الأعلام ، ص ١٩٩

من أسر فارس من أكبر فوارس النصارى في ذلك الحين وهو غرسية أوردونييد (García Ordóñez) صاحب « نخرة Najera »^(١) .

واستشهد أحمد المستعين بعد ذلك بأربع سنوات في معركة حاسمة دارت بينه وبين أرغون أيضاً^(٢) وهي معركة فالتيرا (Valtierra) (رجب ٥٠٣ / يناير ١١١٠) ، وبوفاته فقدت سر قسطة آخر أمراءها الكبار الذين استطاعوا النجاة بها من الأخطار التي أحدثت بالأندلس الاسلامي كله في ذلك الحين ، ذلك أن ابنه الذي خلفه وهو عماد الدولة عبد الملك لم يكن من طرازه ولا من طراز جده المقتدر ، وكان اعتماده على النصارى أشد وأظهر من اعتماد أبيه ، فنفرت رعيته منه ، وتخرج مركزه داخل بلاده . ومما زاد في حرج مركزه اقتراب المرابطين من بلاده وميل أهل سر قسطة الى الدخول في طاعتهم أملا في أن يقوموا بحمايتهم من جيرانهم النصارى^(٣) .

وقد استطردنا عن تتبع أعمال المرابطين العسكرية أثناء إمارة علي بن يوسف ، واستقصينا أخبار سر قسطة حتى اقترابهم منها : فلنعد الآن إليهم لتتبع جهودهم حتى نصل إلى تدخلهم الصريح في شئون سر قسطة . قلنا إن علي بن يوسف لم يكد يستقر على عرش الدولة المرابطية حتى عبر الى الأندلس في نفس العام الذي تولى فيه (٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م) . وكانت ظروف الممالك والامارات النصرانية قد تغيرت تغيراً عظيماً خلال السنوات الأولى من القرن الثاني عشر الميلادي (السادس الهجري) : توفي ألفونس السادس ملك ليون وقشتالة بعد موقعة الزلاقة بعام واحد ، وخلفته ابنته الدونيا أوركا (D^a Urraca) فانحسر الخطر المستمر الذي كان يهدد المسلمين من هذه الناحية ، وتوفي كذلك الكونت هنري البرغوني (Enrique de Borgona) صاحب كونتية البرتغال ، الذي كان يهدد غرب الأندلس كله وخلفته ابنته الدونيا تيريزا (D^a Teresa) ، ولم يعد الخطر ليهدد بلاد المسلمين إلا من الناحية الشمالية الشرقية حيث ظلت الحرب

(١) P. VIVES : *Los Reyes de Taifas*, p. 49

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠٢ ، P. VIVES. *Los Reyes de Taifas*, p. 49

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠٢

مستعرة يقودها أميران نصرانيان على جانب عظيم من النشاط ، هما ألفونسو الأول المعروف « بالمحارب » (Alfonso el Batallador) صاحب أرغون ورامون بيرنجير الثالث (Ramon Berenger III) صاحب قطلونية^(١) ، وإزاء هذا التغير الظاهر استطاع المرابطون أن يتركوا الجهة الشمالية الغربية التي شغلتهم إلى ذلك الحين ، ليتوجهوا بكل قواهم إلى شرق الأندلس الذي كانت الاخطار تهدده كما رأينا .

أقام علي بن يوسف أخاه « أنا الطاهر تهما » حاكما للأندلس . وجعل مركزه غرناطة^(٢) ، ولا نستطيع القول بأنه نقل عاصمة الأندلس إلى هذا البلد ، لأن قرطبة ظلت على حالها واسطة عقد البلاد ، وإنما كانت غرناطة أوفق للمرابطين ، لأن معظم أهلها كانوا من بربر إفريقية ، ثم إنها كانت أقرب إلى شرق الأندلس وإلى إفريقية مصدر الأمداد .

وعجل « تميم » بالمسير لحرب قشتالة ، وكان عليه قبل موقعة أقليمش^(٣) أن يدخل أرضها أن يقضى على الحامية النصرانية التي كانت تحتل حصن أقليمش (أو أقليمج Uclés) شرقي طليطلة ، وكانت على طريق المسلمين إلى بلنسية وسرفسطة تحول بينهم وبين القيام بعمل حاسم في هذه

(١) Francisco Codera : La Decadencia y Desaparición de los Almorávides en España (Madrid 1899), p. 7.

(٢) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٣

(٣) هذه الواقعة هي موضوع الوثيقة الأولى التي نشرها هنا ، وهذه هي المراجع غير العربية التي تتحدث عنها :

Crònicon de Burgos en Esp. Sagr. XXIII p. 310.

Annales Toledanos en Esp. Sagr. XIII. p. 327

CODERA : *Decadencia...*, 10-11

BALLESTRON : *Hist. de Esp.* II. pp. 232-233

ولم يذكرها من المراجع العربية المنشورة بالتفصيل إلا روض القرطاس : ص ١٠٣ — ١٠٤ والوثيقة التي نشرها تعطينا عنها تفاصيل دافية . وقد ذكر عبدالمجيد الحيدري عن أقليمش أنها قاعدة كُور شَتَبَرِيَّة و ذكر أن فيها جامع كبير . (الروض المعطار : ص ٢٨) وهي الآن في مديرية قوننة (Guenca) تابعة لمركز تارانكون Tarancón .

cf: LÉVI-PROVENCAL *La Péninsule Ibérique au moyen-âge d'après Kitāb ar-Raḥḍ al-miḍlāḥ* (Leiden 1938) p. 35

الناحية: فحاصرها المرابطون ، وكان ألفونسو السادس يعلق عليها أهمية كبرى ، فأخذ الأهبة للمسير لدفاع المرابطين عنها ، وكانوا قد قضوا على الكثير من جندها وألجأوا البقية الى التحصن بقصبة البلد « فأشارت عليه زوجته أن يوجه ولده عوضاً منه ، فيكون مواجهاً لميم ، لأن تميم ابن ملك المسلمين وشانجة ابن ملك الروم ، فسمع منها ، فبعث ولده شانجة في جيوش كثيرة من زعماء الروم وأنجادهم » كما يقول ابن أبي زرع : وكانت الوقعة حامية يذهب رواة المسلمين إلى أنه هلك فيها من النصاري ثلاثة وعشرون ألفاً ، ويُقرر الروايات النصرانية أن سبعة من أكبر فرسان النصاري هلكوا فيها ، ولهذا يسمونها « موقعة الأكناد السبعة (Batalla de los Siete Condes) » : وقد هلك فيها من المسلمين عدد عظيم كذلك ، وأراد تميم ترك البلد للنصاري والانصراف عنه لولا أن قواد لتونة من المرابطين أصرّوا على الاستمرار في القتال ، وقد مضوا فيه حتى انهزم القشتاليون انهزماً تاماً (١٧ شوال ٥٠١ هـ / ٣٠ مايو ١١٠٨ م) ، وقد قتل في هذه المعركة « شانجة » بن ألفونسو وولي عهده ، وقد هاضمت هذه الكارثة نفسه ، فتوفي بعدها بنيف وعام (٣ يونيو ١١٠٩ / ٢٩ شوال ٥٠٢ هـ)^(١) .

وقد تشجع المرابطون بعد هذا النصر ، وأقبلوا في سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م — يقودهم علي بن يوسف نفسه ، ووُجهتهم طليطلة ، وإقليمها ، فشنوا عليها غارات عنيفة ، واسترجعوا من كبار مدائنها « مجريط » ووادى الحجارة (Gaudalajara) ، وحاصروا طليطلة شهراً دون أن يصلوا الى نتيجة ، وعادوا الى قرطبة بعد أن ألقوا الرعب في نفوس أهل قشتالة وأمنوا خطرهم ، فانهز علي بن يوسف فرصة الهدوء في هذه الجهة ، وأرسل قائده الأمير « سير بن أبي بكر » في حملة عنيفة الى غرب الأندلس استعادت مدائن شترين (Santarén) وبطليوس (Badajóz) وبرتقال (Oporto) وبأبرة

(١) وقد ذكر ابن أبي زرع خطأ أنه توفي بعد المعركة بعشرين يوماً. روض القرطاس،

ص ١٠٣

CODERA, *op. cit.*, p. 10, 239-242

BALLESTROS : *Hist. de Esp.* 11. p 232-233

(Evora) وأشبونة (Lisboa) (٥٠٤ هـ / ١١١٠ م)^(١)، وقد والى المرابطون الحملات على طليطلة خلال السنوات التالية كلها دون أن يصلوا الى نتيجة . وكان مركز الاسلام في شرق الأندلس قد تحسن تحسناً كبيراً بعد أن استعاد المرابطون بلنسية من النصارى في سنة ١١٠٢ م . بعد أن أقامت هي وإقليمها تحت سلطان رودريجو دياز دي بيقار المعروف بالسيد القمبيطور (El Cid Campeador) قرابة السنوات العشر (٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م — ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م) وقد استخلصها من أيدي رجال هذا المغامر القشتالي القائد المرابطي أبو عبد الله محمد بن مزدي ، بعد كفاح طويل مرير مع زوج السيد «شمانة» (Chimena) وألفونس السادس، ولم يغادر النصارى بلنسية إلا بعد أن أشعلوا فيها النار ، وجعلوها كومة رماد^(٢) ، ولكن عودتها قوّمت الجبهة الاسلامية في شرق الأندلس ، وفتحت الطريق أمام المرابطين لتأمين سرقسطة والذغر الأعلى ، وأمنت ما يليها إلى الجنوب من البلاد مثل مرسية ومالقة . وكانت أحوال « سرقسطة » تسير في ذلك الحين من سيء إلى أسوأ ، وكان أهلها قد سكنوا خلال المدة الماضية لما كان من همّة أميرهم «المستعين» واقتداره على مناصرة «السيد» و«ألفونسو السادس» والنجاة ببلاده من شرها . وقد أخذ المؤرخون عليه صداقته مع « السيد » وإيواءه إياه واستخدامه له في حروبه ، وأخذوا عليه كذلك وقوفه مكتوف اليد أمام ما كان « السيد » ينزله بأهل بلنسية من الويلات^(٣) ، ولكن الرجل لم يكن ليستطيع فعل شيء

(١) ابن أبي ذرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥

(٢) لا يتسع المقام هنا للكلام عن « السيد القمبيطور » وعلاقته بالمسلمين وفضائله في بلنسية . وقد انجابت الآن كثير من الشكوك التي كانت تحيط بحياته هذا الفارس القشتالي الذي جعلته أشعار الملاحم الاسبانية أعظم رجال عصره ، ثم جاء متندذ بيدك لجملة أعظم أبطال التاريخ الاسباني إطلاقاً في كتابه المعروف La España del Cid وقد قرر فيه آراء تستدعي من جانبنا استدراكاً شاملاً .

(٣) راجع ما يقوله « ابن عذاري » في القطعة التي نشرها ليثي بروفنسك من الجزء الرابع من « البيان المغرب » في مجلة الأندلس :

LEVI PROVENÇAL: La Toma de Valencia por el Cid. Al-Andalus, Vol. XIII, 1948, fasc. I p 123

لأنه كان بين المطرقة والسندان ، ولو اتفق «السيد» و«ألفونسو السادس» عليه لضاعت سرقسطة من ذلك الحين . ثم إن قوات المرابطين كانت بعيدة عنه في مرسية ، ولم يكن في استطاعتها الوصول الى بلاده . فلما توفي السيد في سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ، أمن المرابطون بعض الشيء ، وبدأت آمالهم تعود في الاستيلاء على شرق الأندلس كله ، وحمايته من أذى المغامرين من فرسان النصراري وملوكهم .

وتدل الدلائل كلها على أن المرابطين وجهوا معظم همهم في ذلك الحين الى شرق الأندلس ، فأقام علي بن يوسف أخاه أبا الطاهر تيمناً عاملاً على الأندلس ، وندب هذا أكبر قواده «محمد بن الحاج» قائداً لجيوشه في الشرق وجعل مركزه مرسية ، وجعل معه تقرأ من أكبر قواد «ليثونة» تذكر المراجع منهم محمد بن عائشة ومحمد بن فاطمة وأبا بكر إبراهيم بن نافلوت أو «نافلوت» وجعل مع كل منهم قطعة كبيرة من الجند يخرج بها للغزو في نواحي سرقسطة وبرشلونة وما يليهما من أراضي النصراري ، وكان أبو بكر إبراهيم ابن نافلوت حاكماً مدنيا لمرسية وإقليمها (١) .

وهلك المستعين بن هود — على ما مر — في سنة ٥٠١ هـ ، وخلفه ابنه عبد الملك عماد الدولة ، ولم يكن من نسيج أبيه ، فبدأت مخاوف أهل سرقسطة تتزايد ، وكان عبد الملك شديد الخوف من أن يسير «المرابطون» من مرسية ويستولوا على بلاده ، فجعل يميل الى جيرانه النصراري ميلاً قوياً ، وخشى السرقسطيون مغبة ذلك ، فشرطوا عليه «ألا يستخدم الروم ولا يلابسهم ، فنقض بعد أيام يسيرة ذلك ، لما استشعر من ميل الناس الى المثلثين» (٢) .

وكانت الجبهة النصرانية قد جدد عليها عامل جديد سيكون بعيد الأثر في مصير الأندلس الاسلامي ، ذلك هو صعود «ألفونسو الأول» الملقب «بالمحارب» (Alfonso el Batallador) عرش أرغون سنة ٤٩٨ هـ / سنة ١١٠٥ م ، فقد كان فارساً جليلاً متجديماً المهمة شديد الطمع فيما

(١) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ١٠٤

(٢) ابن الأثير ، الحلة السيرة ، ص ٢٢٥

جاوره من بلاد المسلمين . وكان الى نشاطه وذكاؤه سعيد الحظ ، إذ أنه تزوج « أوراك » Urrach ابنة ألفونس السادس الوحيدة ووارثة ملكه ، فلما توفي هذا انضمت ليون وقشتالة الى أرغون ودخلت في طاعته كذلك إمارتا « جليقية » و « البرتغال » وكانتا تؤديان اليه الجزية ، فأصبح « ألفونسو المحارب » بهذا يملك معظم شبه الجزيرة ، لا يخرج عن سلطانه إلا قطلونية في الشرق وبلاد المسلمين ، وكان قد ورث عن سلفه وأخيه « بدرو » الحماس المسيحي والرغبة في الاستيلاء على ما بيد المسلمين من بلاد ، وكان « بدرو » قد حوّل الكفاح بين الاسلام والنصرانية في شبه الجزيرة الى حرب صليبية ، لأنه « لما أسفرت الحرب الصليبية عن النجاح ، وفاز الصليبيون بافتتاح بيت المقدس ، أعلن البابا بسكال الثاني الحرب الصليبية في إسبانيا ضد المسلمين ، وإذ كان النصارى الاسبان قد مُنعوا من مرافقة الصليبيين الى بيت المقدس ، فقد رأى بدرو ورعاياه أن يشهروا الحرب الصليبية في إسبانيا ذاتها ضد (أعداء الدين) »^(١). بهذه الروح الجديدة سار ألفونسو المحارب في حربه مع المسلمين ، وكانت وجهته من أول الأمر « سرقسطة » إذ كانت أعظم مدائن الشمال الشرقي ، وكانت تراءى أمامه فريسة سهلة لا يكاد يعصمها منه غير « المرابطين » . وزاد طمعه فيها وفاة المستعين وقيام ابنه عبد الملك عماد الدولة بالأمر من بعده ، ولولم يُشغل ألفونس عن « سرقسطة » بما نشب من الحروب بينه وبين زوجته أوراك وأنصارها ، لتقدم سقوط سرقسطة في يده بضع سنوات .

ولم يكن لعبد الملك بن هود بد من مداراته . ويبدو أن عبد الملك أسرف في المداراة والانكماش أمام الفونس المحارب ، فخشي المرابطون أن ينتهي الأمر بضيماع « سرقسطة » ، فسير محمد بن الحاج قائد محمد بن فاطمة في جيش صغير نحوها ، فلما اقترب منها خشي أهلها أن يسرع أميرهم بالاستنجاد بالنصارى ، فأشاروا عليه « بأن ينصرف عنهم ، ولا يبدأ بالفتنة ، ويخفى عليهم

(١) اشباخ : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين (تعريب الامتاذ محمد عبد الله عنان) : ج ١ ص ١٤٦

استغاثة أميرهم بالروم ، فأنصرف عنهم ^(١) ، وزادت مخاوف عبد الملك من ناحية المرابطين ، وعول على الاستنجاد بالروم رغم ما كان أهل البلد قد شرطوا عليه من عدم الاستعانة بهم أو محالقتهم ، وبلغ الخبر محمداً بن الحاج قائد المرابطين ، فأسرع بالسير نحو سرقسطة سنة ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م ، وعجل عبد الملك بالاستعانة بالقونس ، فأسرع محمد بن الحاج وتمكن من دخول البلد واحتلاله ، وخرج عبد الملك بن هود إلى الشمال واستقر بمحصر روطة (Rueda) تحت حماية القونس الأول المحارب ملك أرغون ، وبذلك انتهى الدور الأول من تاريخ بني هود في سرقسطة ، وسيتجدد لهم الأمر في نواح أخرى من الأندلس في أواخر أيام الموحدين ، ويبدأ بذلك الدور الثاني من تاريخهم .

فلما تمكن الأمر للمرابطين في سرقسطة تجردوا لحرب رامون بيرنجير الثالث كونت برشلونة ، وكان من ألد أعداء المسلمين ، لا يزال يناجزهم ويعتدي على بلادهم ما أمكنته الفرصة ، فخرج محمد بن الحاج في حملة قوية نحو برشلونة في سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٤ م . وصاحبه القائد محمد بن عائشة ، وصر الجيش في طريقه إلى برشلونة بمحصر ترفيرا (Cervera) ^(١) فخر به ، ثم وصل إلى أحواز عاصمة قطلونية ، واجتهد المرابطون في تخريب أرباضها وزروعها ، وعجزوا عن الاستيلاء على البلد لحصانته ، وعادوا محملين بالغانم الوافر ، ويبدو أن الغنائم كانت كثيرة جداً ، لأن محمداً بن الحاج أرسلها مع معظم الجيش على الطريق الكبير (الرومانى ؟) ، أما هو ففضل أن يختصر الطريق مع لمة مختارة من جنده فيهم محمد بن عائشة ، فسار في مفاوز وعرة ومضايق مليئة بالمخاطر ، فانهز جند برجلونة الفرصة ، وكنوا له عند ضائق وعرة قريب من حصن كونيست دل مارتو ريل (Congost del Martorell) وهاجموه « فقاتلهم قتال من أيقن بالموت ، واعتنم الشهادة ، إذ لم يجد منفذاً

(١) أخذت الاسم الصحيح لهذا الحصن من الرواية النصرانية ، وقد ذكر ابن أبي زرع في وصفه لهذه الحملة حصناً باسم « البرية » وربما كان هذا اللفظ تحريفاً من الناسخ لاسم الحصن .

انظر :

(CODERA : *Decadencia...* p. 21

وابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ١٠٤

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠٢

يخلص منه ، فاستشهد رحمه الله . واستشهد معهم جماعة من المطوعة ، وتخلص منهم القائد محمد بن عائشة ففر بالخيالة إلى بلاد المسلمين^(١١) (٥٠٨/١١١٤م) وكانت لهذه الكارثة رجة كبرى في بلاد الأندلس ، وعجل الأمير علي بن يوسف فأقام الأمير أبو بكر بن إبراهيم بن تافلوت المسوي^(١٢) حاكم مرسية إلى ذلك الحين ، حاكما على شرق الأندلس ، وقد أصيب محمد بن عائشة في هذه المعركة أصابة لم يلبث أن فقد بصره بسببها فيما بعد^(١٣) .

وتجرد أبو بكر إبراهيم بن تافلوت لحرب برشلونة للأخذ بثأر هذه الهزيمة ، فجمع جنداً كثيرين وسار بهم إلى بلنسية ثم إلى سرقسطة ، وجمع من نواحيها من استطاع من الجند ، وسار فزل برشلونة وضييق عليها وأزل بزارعها خراباً شاملاً^(١٤) .

وكان الأمير علي بن يوسف قد عزل أخاه تيماء عن ولاية الأندلس واستبدل به الأمير سير بن أبي بكر ، فأقام في الولاية حتى وفاته سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م فولّى حكم الأندلس مكانه الأمير محمد بن فاطمة ، فأقام حاكماً إلى أن توفي سنة ٥١٠ هـ / ١١١٥ م خلفه في هذا المنصب الكبير الأمير عبدالله مزردلي ، وكان من كبار قواد المرابطين ، فأبدى نشاطاً عظيماً في حرب التصاري ، ولم يقصر جهوده على إقلاية طليطلة وغرب الأندلس كما كان سابقه يفعلون ، بل اتجه بهيمته إلى الثغر الأعلى ، وكان الضغط الصراني قد اشتد عليه من كل ناحية : كان الكونت رودريجو نونيز Rodrigo Nuñez (يسميه ابن أبي زرع « بنى الزند غريسيس ») صاحب « وادي الحجارة » قد سار إلى « مدينة سالم » فحصرها ، فسار إليه عبدالله مزردلي واضطره إلى الفرار تاركاً عسكره وأثقاله ،

(١١) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٤

(١٢) يرد اسم هذا القائد عادة دون نسبه ، وقد عثرت على نسبه تلك عند ابن خلدون :

المبر ، ج ٤ ص ١٨٨

(١٣) اختص ابن الأبار إبراهيم بن تافلوت بمادة من مواد « المعجم و أخبار أبي علي الصديقي » (ص ٥٥) ومنها نعرف أنه ابن يوسف بن تاشفين ، وأنه كان يعرف بابن تديشت .
« يسمى ابن الأبار هذه الوقعة » بوقبة البورت .

(١٤) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥

ثم توجه الى إقليم سرقسطة ليدفع عنه هجوماً عنيفاً قام به ألفونس الأول
المحارب صاحب أرغون ، واشتبك أبو عبد الله مزدي معه في قتال عنيف
استشهد فيه سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٥ م^(١) ولم تحدد لنا المراجع مكان ذلك اللقاء .
وفي هذه الأثناء كانت الحرب بين أبي بكر بن تافلويت قائد المرابطين في
سرقسطة وبين رامون برنخير صاحب برشلونة مستمرة على أشدها ، وانكسر
المرابطون كسرة شديدة ، في سهل برشلونة في أواخر سنة ٥٠٨ هـ / ١١١٥ م .
وبعد ذلك بسنتين توفي ابن تافلويت آخر كبار حماة شرق الأندلس
من المرابطين^(٢) ، واشتد الضغط على سرقسطة وبدأ بوضوح أن مصيرها
الى النصارى (٥١٠ هـ / ١١١٧ م) .

وفي أوائل سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م تخرج أمر المرابطين في شرق الأندلس
بل في الأندلس عامة بعد أن تخطف الموت كبار قوادهم على ما رأينا ،
وبعد أن استشهدت زهرة رجالهم في ميادين الجهاد جماعة بعد جماعة ، فاضطر
على بن تاشفين إلى الجواز بنفسه ، فأقبل إلى قرطبة في صفر من ذلك العام ، وأقام
محمد بن عبد الله مزدي على قيادة جيوش المرابطين في سرقسطة وزوده بحشود
من الجنود والطوعة . وكان « ألفونس المحارب » قد أقبل يحاصر سرقسطة
وأذاق أهلها بلاء شديداً ، فلم يزل محمد بن مزدي يدافعه عنها حتى ألجأه
إلى رفع الحصار . وبعد عام من الصراع العنيف توفي محمد بن مزدي ولم يتسع
المجال أمام المرابطين لتولية خلف له ، فبقى البلد أعزل لا يكاد يحميه أحد .
فانهز ألفونس الفرصة وأقبل يحاصر البلد من جديد^(٣) (٥١٢ هـ / ١١١٨ م) .
وزاد طمع ألفونس حينها وجد إقليم سرقسطة خالياً من جند المرابطين .
فحاصر « لاردة » وكاد يستولي عليها ، فأرسل أهلها يستنجدون بعلي بن يوسف .
فبعث أخاه تمبا وأقامه عاملاً على شرق الأندلس ، فسار تميم في جيش كبير

(١) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥

(GONZALEZ : *Almorávides...* p. 249

(٢) ابن الخطيب ، الاطحة (مخطوط الاسكوريال) ورقة ٩٨

(٣) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٥

(GONZALEZ : *Almorávides...* p. 250)

وسار معه عمه يحيى بن تاشفين صاحب قرطبة ، وثبتوا لألفونس حتى أجبروه على رفع الحصار عن « لاردة » بعد أن فقد نحو عشرة آلاف من جنده^(١١) ومضوا يتعقبونه في بلاده . ولم يستطع تميم الاستمرار في القتال ، لأن أمور المرابطين اضطربت في مراکش ، فاضطر إلى العودة إلى بلنسية . ومنها رجع إلى مراکش ، وكان بهوم بأمر مرسية لعلي بن يوسف أخوه أبو إسحاق إبراهيم ، فأسرع إلى سرقة سطة لرب أمورها بعد انصراف تميم ، ولم يطل مقامه فيها ، وعاد إلى مرسية^(١٢) وخلا الخو بذلك أمام « ألفونس المحارب » فعاد هذه المرة « في أمم كالممل والجراد ، فنزلوا معه بها ، وشرعوا في قتالها ، وصنعوا أبراجا من خشب تجرى على بكرات ، وقربوه منها ، ونصبوا عليها عشرين من متجنيقا ، ووقع طمعهم فيها ، فاستمر الحصار عليها حتى فئت الأقوات وفنى أكثر الناس جوعا . فراسلوا ابن ردمير (ألفونس الأول المحارب) على أن يدفع عنهم القتال إلى أجل . فان لم يأتهم من ينصرهم خلفوا له البلد وأسلموها له ، فهدمهم على ذلك ، فتم له الأجل ، ودفعوا إليه المدينة ، وخرجوا عنها إلى مرسية وبلنسية . وذلك في سنة اثنى عشرة وحمسة ، وبعد دخولها وتملك النصارى إياها وصل من العدو جيش من عشرة آلاف فارس لاستنقاذها ، فوجدها قد فرغ منها وملكها العدو ونفذ حكم الله فيها^(١٣) . هكذا سقطت سرقة سطة قاعدة الاسلام الكبرى في شرق الأندلس ، وعجز المرابطون عن استردادها ، لأن أمور دولتهم كلها كانت قد اضطربت بسبب ظهور الموحدين واشتداد القتال بينهم وبين المرابطين في إفريقية .

وعلى رغم المصاعب التي أحاطت بعلي بن يوسف فقد عبر إلى الأندلس سنة ٥١٣هـ / ١١١٩م ليغيث أهلها من ضغط أمراء النصارى في كل ناحية ، وقد بذل على بن يوسف جهدا وأقام أخاه تيمما حاكما عاما على الأندلس من جديد ، فمضى هذا يشن الغارات على إقليم طليطلة ، ولم تعنه الظروف على الالتفات

(١١) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦

(١٢) ابن الخطيب ، الأمانة (مخطوط الاسكوريال) ص ٩٨

(١٣) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦

إلى ناحية الشرق . وأقام أهل شرق الأندلس يلجئون في طلب النجدة حتى استمع اليهم تميم وبعث اليهم قوة مرابطية صغيرة يقودها الأمير أبو اسحاق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين ، وتحمس أهل شرق الأندلس حماساً عظيماً وخرج كل من استطاع الخروج معهم حتى العلماء من أمثال أبي علي الصدي وأبي بكر بن العربي لم يترددوا في اغتنام الشهادة . وكان ألفونس محاصراً «لقلعة أيوب» ، فساروا نحوه . والتقوا معه عند بلدة (كتندة) على مقربة منها ، وهناك دارت رحى معركة عنيفة انزم فيها المسلمون هزيمة فادحة ، ومات من المطوعة بتمعة آلاف فيهم أبو علي الصدي ، ويؤكد المقرئ أن أحداً من جند المرابطين لم يهلك فيها . لأنهم تركوا المطوعة يصلون نيران المعركة وجدهم . (ربيع الأول أو الثاني سنة ٥١٤ هـ / يونيو أو يوليو سنة ١١٢٠) (١).

ويكفي للدلالة على الصدى البعيد الذي كان لهذه الهزيمة في بلاد المسلمين أن نذكر أن علياً بن يوسف جاز إلى الأندلس بنفسه في العام التالي (٥١٥ هـ / ١١٢١ م) لكي يأخذ بثأر هذه الهزيمة : ولم يستطع التقدم نحو سرقسطة ، لأن الطريق إليها كان قد أقفل كما ذكرنا ، فاكثف بمغازاة نواحي طليطلة والبرتغال وأمّحن فيها واستولى على قلعة قلمرية Coimbra (٢) على شاطئ المحيط الأطلسي . ثم عاد إلى إفريقية بعد ذلك تاركاً أمور الأندلس لاختيه تميم وسرى أن تهما سيحاول بعد ذلك الانتفاة إلى سرقسطة لاستنقاذها : ولكن محاولته ستكون هزيمة ، لأنه لم يجرؤ على الثبات للنصارى وانهزم أمامهم عندما كان يعرف بالقلعة أو القلاعة لم نستطع تحديد موقعه بالضبط) انظر مقدمة الوثيقة الثانية .

(١) راجع عن معركة كتندة : ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦ — ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٤ — ابن ادبار : المدجم في أخبار أبي علي الصدي ، ص ٧ — المقرئ ، فتح الطبيب ، ج ٣ ص ٧٥٩ («نبذة القاهرة»).

SAN JUAN DE LA PEÑA, *Cronicon*, p. 68.

ZULIYA, *Annales* Lib I Cap. XLIV.

Annales Compostelani Esp. SACR. XXIII, p. 321.

(٢) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٦

أشباخ ، تاريخ أندلس . . . ص ١٥٣

وكانت لهزيمة كستندة الفاسية نتائج بعيدة المدى في مصير « الثغر الأعلى » الأندلسي كله ، إذ أن استيلاء « الفونس » على هذا الحصن المنيع المجاور « لدروقة » قد سهل له الاستيلاء على هذا البلد الأخير وعلى حصن « قلعة أيوب » المجاور له . وبهذا أصبح يسيطر سيطرة تامة على سهل الإبرو الأعلى ، ولم يعد من الميسور لجيوش المسلمين أن تنهد لانقاذ سرقسطة ، وسترينا الوثيفة الثانية كيف أن المرابطين لم يجرؤوا بعد ذلك على مجرد الاقتراب من سرقسطة ، لأن « كستند » « وقلعة أيوب » كانتا في يد هذا المحارب الأغرواني الذي لا يكل ، وكان ينفذاً لا يغفل له عين عن حراسة بلاده ، كلما استولى على معقل من معاقل المسلمين اتجهت به الهمة الى الذي يليه .

وكانت تلك آخر محاولة جديّة قام بها المرابطون لاستنقاذ سرقسطة ، ولم يحاول أحد من أمراء المسلمين استعادتها بعد ذلك على رغم ما بذل المرابطون والموحدون بعد ذلك من محاولات : لم يتسع الوقت أمام المرابطين لاعداد العدة لاستعادة هذا البلد الكبير ، لأن المعركة الطويلة بينهم وبين الموحدين كانت تشتد يوماً بعد يوم ، فلم يعودوا يستطيعون إرسال جيوش كبيرة إلى الأندلس . ولم يكن من المستطاع استعادتها إلا بجيش كبير ، لأن الفونس المقاتل صاحب أرجون أرصد قوته كلها للحفاظ على تلك الغنيمة العظيمة التي سقطت بين يديه ، وقد رأينا إصراره على أخذها وتركيز قواته كلها للفرز بها طوال نيف وعشر سنوات . ثم إن أهل الأندلس جميعاً ضاقت نفوسهم بالمرابطين ، وعمّا قريب تبدأ الثورة عليهم في كل بلد أندلسي ، ولن يدع هؤلاء الأندلسيون فرصة يسبئون فيها إلى المرابطين إلا ابتدروها ، وسيقف المرابطون في الأندلس موقف المدافع عن نفسه أمام مسلمي الأندلس . فكيف كان يتاح لهم التفكير في استنقاذ هذا المعقل الاسلامي الذي ضاع الى الأبد ؟ هكذا سقطت « سرقسطة البيضاء » درة « الثغر الأعلى » وطلبة حصون الاسلام في معركة الطويلة مع النصرانية في إسبانيا ، أضاعها الأندلسيون بما أسرفوا فيه من عداوة المرابطين وأضاعها المصادفة السيئة ، مصادفة ظهور الموحدين في ذلك الحين .

ولقد رأينا ما بذله المرابطون في سبيل سرقسطة وشرق الأندلس :
 كم من جيش لهم هلك مناجزاً عن حومة الاسلام ، وكم من قائد لهم سقط
 في سبيل سرقسطة ولاردة وملنسية وغيرها من حصون الاسلام ولكن
 شيئاً من ذلك لم يُعند ، فقد كان قضاء الله قد سبق ولم تعد تنفع في درئه حيلة .
 أحسن ، ولم يفقد هؤلاء المرابطون المجاهدون رغم ذلك كله الأمل في استنقاذ
 ما يمكنهم إنقاذه من حواضر الاسلام الأندلسي ونواحيه ، ولم تكذب تمنح لهم
 الفرصة حتى انددوها وأمانهم الحظ هذه المرة : ففي شعبان سنة ٥٢٢ هـ
 يوليو ١١٣٠ م توفي عماد الدولة عبد الملك بن هود أمير سرقسطة الذي ذكرنا
 كيف ترك البلد عند استيلاء المرابطين عليه ولجأ إلى حصن « روطنة » المعقل
 الوحيد الذي بقي للإسلام من إمارة سرقسطة . وهناك أقام في حماية
 « ألفونسو المحارب » صاحب أرغون ، وخلقته ابنته أبو جعفر أحمد
 سيف الدولة^(١) ، الذي أبقى رغم سوء حاله وانضوائه تحت لواء ملك نصراني—
 إلا أن يتخذ لنفسه إماماً خلافاً هو « المستنصر بالله » وهو لقب حالف الحظ
 السيء كل من اتخذ من خلفاء الاسلام ! ويبدو أنه ضاق بسططار
 « الفونس المحارب » عليه ، فتركه ودخل في تبعية خصمه الفونس ريمونديز
 Alfonso Raymondéz ملك قشتالة الذي تسميه المراجع العربية « التسليطين »^(٢) ،
 وكان المرابطون قد استولوا أثناء حملاتهم المتوالية على الثغرات الأعلى على طرطوشة
 ولاردة وإراغة Praga ومكناسة Mequinez^(٣) ، ولم يستطيعوا الاستيلاء
 على « روطنة » أكبر حصون هذه الناحية ، لأن « المستنصر » نزل عنها
 لملك قشتالة الذي منحه عوضاً عنها « نصف طليطلة » كما تقول مراجعنا
 الاسلامية ، والواقع أنه لم يعطه إلا بعض الأراضي المجاورة لطليطلة بصفة اعطاع .
 وفيما بين سنتي ٥٢٥ ، ٥٢٦ هـ (١١٣٠ ، ١١٣١ م) استطاع « ألفونس المحارب »
 أن يستولي على طرطوشة ومكناسة بعد كفاح طويل ، ثم توجه بقواته نحو

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١١ ص ١٤

(٢) أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين (ترجمة الأستاذ محمد عبد الله

عنان) ج ١ ص ١٧٢

(٣) Codera, Almoravides, p. 12-13

« إفراغة » وكانت كَوَكْر العقاب تشرف على نهر « أنجا » فحاصرها حصاراً شديداً ، وأسرع لنجدها أمير مرابطي من قبيلة « مسوفة » سيكون له أثر عظيم في تاريخ الأندلس خلال عصر الموحدين وهو يحيى بن غانية جد بني غانية أصحاب الجزائر الشرقية ، وكان يلي بالذسية ومرسية اعلي بن يوسف ، وسار لنجدها كذلك عبد الله بن عياض عامل المرابطين على « لاردة » ، وانضمت الى قواتهما قوة كبيرة من المرابطين أقبلت من جنوب الأندلس ، وكان ألفونس قد عول على الموت أو الاستيلاء على « إفراغة » وأقسم على ذلك هو وعشرة من خيرة رجاله ، مما يدلنا على مقدار الحماس والتفاني الذي كان يعمر نفوس هؤلاء الأسبان في هذا الدور من صراعهم مع المسلمين . وبلغ من رغبته في استنفاذ قومه أن أمر برفات القديسين فأتي بها الى الميدان إذكاء لروح الحماس الديني في قلوب الرجال ، وجعل الأساقفة والرهبان يقودون بعض الصفوف ، حتى ألتهبت نفوس جنوده حمية ، وأقبلت قوات المرابطين واشتبكت معهم مرتين لم توفق في كليهما ، فوقع اليأس في قلوب أهل البلد وعولوا على التسليم : ولكن ألفونس رفض وصمم على أن يفتح البلد بمجد السيف .

وهنا ثارت نفوس أهل البلد المجاهدين : واندفعوا يقاتلون قتال المستيئس ، وكرّ المرابطون على البلد مرة أخرى في عزمات قوية : واستدرجوا الجيش الأرغوني الى كمين وضعوه في الطريق ، ثم انقضوا عليه من كل ناحية ، وامتلكوا زمام المعركة ومنزقوا الجيش الأرغوني شر ممزق ، وسقط من حماة النصاري وقوادهم وأساقفتهم في هذه المعركة نفر كبير في مقدمتهم « ألفونس المحارب » نفسه ، سقط تحت سيوف المرابطين^(١) في ختام هذا الصراع الرهيب الذي احتدم بينهم وبينه عشرات السنين (٢٣ رمضان ٥٢٨هـ / ١٧ يولييه ١١٣٤م).

(١) راجع عن موقعة إفراغة : الضبي : بنية الملتهس ٨ ج ١ ص ٩٥ ، ٤٠٦ — ابن الأثير ، الكامل : ج ١١ ص ٢١ — ابن الخطيب ، الاطاحة (مخطوط الاسكوريال) ص ٢٨ — ابن عبد المنعم الجبري ، الروض المطار ، ص ٢٤ — ٢٥
CRONICA DE ALFONSO VII en España Supradia, XXI pp. 339-344
CODERA, op. cit. pp. 267-272

أسباخ ، نفس المصدر ، ص ١٧٢

هكذا فشل ملك أرغون في الاستيلاء على إفراغة ولاردة . وارتفعت الروح المعنوية للمرابطين وتجدد نشاطهم ، وبدوا كأنهم مبادرون الى الافتراب من سرقسطة التي كانت قد أصبحت عاصمة أرغون ، ولكن الظروف لم تسعفهم ، ذلك أن الحظ عوض الجهة النصرانية بملك آخر لا يقل نشاطاً - لا رغبة في مغالبة المسلمين عن ألفونسو المحارب ، ذلك هو ألفونسو السابع ملك قشتالة وليون ابن الملكة أوركا - التي ألمنا بطرف من أخبارها - من زوجها ريمونديز البرغوني . كان قد تولى عرش قشتالة سنة ٥٢٠ هـ ١١٢٦ م . بعد أن توفيت أمه الطموح التي قضت في ميادين القتال معظم عمرها (١) ، ومن غرائب المصادفات أن عام ولايته كان عام وفاة أبي الطاهر تميم الذي ظل يقوم بأمر الأندلس خلال العشرين سنة الأخيرة ، خلا بعض فترات قصيرة . وبوفاته أخذ أمر المرابطين في الأندلس هوى في سرعة .

وليس هذا مقام ذكر ما تلا ذلك من أعمال المرابطين العسكرية في الأندلس ، لأنهم سيمطلون بعد ذلك قرابة السنوات العشر يحاربون النصارى ويغازون بلادهم دون أن يوفقوا إلا إلى قليل ، لأن شئون دولتهم في إفريقية كانت قد اضطربت اضطراباً زائداً ، ولأن أهل الأندلس المسلمين انقلبوا عليهم في كل ناحية ، وقاموا عليهم يقتلونهم حيث وجدوهم ، وانتهى أمرهم في الأندلس وفي المغرب كذلك نهاية محزنة : أبادهم النصارى والأندلسيون في الأندلس ، وقضى على قواتهم الموحدون في المغرب ، ولم يبق منهم إلا فرع بنى غانية المسوفيين الذين اعتصموا بالجزائر الشرقية وظلوا يناوئون الموحدين حتى أيام الناصر الموحدي .

وبهنا من ذلك كله أن دولة الاسلام فقدت سرقسطة الى الأبد ، وسنرى في الوثيقة الثالثة أن علياً بن يوسف كان مهموماً بأمرها يفكر في استعادتها . ولكن محاولاته كلها لم تسفر عن شيء .

وكان الفونس المحارب قد نقل عاصمة ملجته إلى سرقسطة بعد استيلائه عليها مباشرة وحول مسجدتها الجامع الى كنيسة . وأزل فيها أعداداً عظيمة

من جنده وأهل أرغونة ، ومنحهم حقوقاً وامتيازات ، وتمكن خلال السنوات الثلاث التي تلت استيلاءه على سرقسطة من احتلال طر كونة *Tarragona* عاصمة أسبانيا الرومانية ، وأعاد إليها أسقفيتها القديمة ، واستولى كذلك على « قلعة أيوب » ودروقة وتجرد للاستيلاء على بقية حصون « الثغر الأعلى » مثل « شقف » وروحة ومكناسة فاستولى عليها : كما ذكرنا . واستولى خلفاؤه على افراغه ^(١) . وبهذا انتهى الثغر الأعلى كله وأصبحت أقصى حدود الاسلام في شرق الأندلس المنسية ومرسية ، وستكونان مسرحاً لأحداث عظيمة وحروب طويلة بين النصرانية والاسلام في عصر الموحدين .

BALLESTERAS : *Hist. de España*, II pp. 327 sqq.

الوثائق

الوثيقة الأولى :

موقعة « أقليمش » من المواقع الكبرى في عهد المرابطين ، وهي أحد الانتصارات الكبرى التي أحرزها هؤلاء الممتليون المتحمسون الذين خرجوا من مواطنهم في إفريقية للذيد عن مصير الاسلام في الأندلس . ويقول المؤرخ « يوسف أشباخ » في « تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين » في تقدير هذه الموقعة « ويمكن أن نعتبر انتصار المرابطين في أقليمش في ٢٩ مايو سنة ١١٠٨ م (١٧ شوال سنة ٥٠٩ هـ) ذروة سلطانهم في إسبانيا . ومن ذلك التاريخ تنحدر قوتهم في إسبانيا عاماً بعد عام ، وتعصف روح الخروج والثورة بسلطانهم في إفريقية والأندلس ، ويفقدون سقوطهم في القريب أمراً محتوماً » (ج ١ ص ١٢٤ من ترجمة الاستاذ محمد عبد الله عنان) ، ولدينا عنها تفاصيل كثيرة أوردناها في الفصل التاريخي السابق ، ولا نحتاج لجهد كبير للاستيعاب أن هذه الوثيقة تضيف الى معلوماتنا عن تفاصيل هذه الموقعة شيئاً كثيراً جديداً .

والغالب أن « ابن شرف » كاتب الرسالة هو أبو الفضل جعفر بن أديب إفريقية أبي عبد الله محمد بن شرف الجذامي من بلدة « برجة » بالأندلس ، وكان من شعراء المعتصم بن صامح صاحب المرية ، وقد أورد المقرئ له له في « النفع » شعراً كثيراً وأخباراً متفرقة . والظاهر أنه دخل في خدمة المرابطين بعد استيلائهم على « المرية » .

وقد أفرد ابن عبد المنعم الحميري فصلاً لأقليمش في « الروض المعطار » جاء فيه : « مدينة لها حصن في ثغر الأندلس ، وهي قاعدة كور تنسيرية وهي محدنة ، بناها الفتح بن موسى بن ذي النون ، وفيها كانت ثورته وظهوره في سنة ١٦٠ هـ ثم اختار أقليمش داراً وقراراً ، فبناها ومدنها ، وهي على نهر منبعث من عين عاليه على رأس المدينة ، فيعم جميعها ، ومنه ماء حماتها ، ومن العجائب البلاط الأوسط من مسجد جامع أقليمش : فإن طول كل جائزة

من جوائز مائة شبر وإحدى عشر شبرا ، وهي مربعة متحوطة مستوية
الاطراف (ص ٢٨) .

وتقع أقليمش Ucles اليوم في مديرية قونقة Cuencu في ناحية Tarazona
في إسبانيا كما ذكرنا .

cf. LEVÉ PROVENÇAL : *La Péninsule Ibérique* ... p. 35 et n. 3
وفد أورد كثير من المؤرخين أوصافاً مختلفة ، للمركبة التي نحن بصدد
ولكن الوصف الذي تقدمه هذه الوثيقة دقيق يعطينا صورة واضحة
جداً عنها ، فهو يصور لنا ترتيب الجنود فيها ثم يتتبع تطورها في تفصيل
عظيم القيمة من الناحية التاريخية .

رسالة

كتب بها الوزير الكاتب ابن شرف عن بعض
رؤساء الغرب ^(١) إلى أمير المسلمين ^(٢)
رحمه الله في فتح أقليمش أعادها الله ^(٣) بقدرته

أطال الله بقاء « أمير المسلمين وناصر الدين » ^(٤) ، عماد الأنام وعتاد
الاسلام ، السعيد الأيام . الحميد المقام ، كبير القدر وظهيرى على الدهر ،
الذى أجله بحقه وأقر له بسبقه ، وأدام خلوده مؤيد الارادة مؤيد السعادة
مجدد النمو والزيادة . والحمد لله الجبار القهار الذى شد الأزر وأمد النصر ،
وأعطى الفيلسج عن قسر ، ففلق عنه يد الماطل ، وفرق بين الحق والباطل ،

(١) كذا في الأصل ، ويراد به « الغرب » وكان هذا اللفظ يطلق على الأندلس
يضاً في ذلك الحين .

(٢) علي بن يوسف بن تاشفين .

(٣) لم يتم فتح « أقليمش » في هذه الحملة . إذ بقيت قصبة البلد في يد النصارى ،
فما نرى ، ولهذا يقول : أعادها الله .

(٤) ما بين الشولات هو اللقب الرسمى الكامل لأمرء المراتطين .

(٥) الكتاب صادر عن الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين حاكم الأندلس وفائد
هذه الحملة .

والحمد لله الذى أسعد بدولة أمير المسلمين الأيام ، ونصر بسيفه الاسلام ،
وغاظ به الكفار ، وجعل عليهم الكرة فولوا الأدبار . والله تعالى يشفع
سعوده ويضمن مزيده ، وينصر جنوده بمنه .

ولما أن وضعنى أمير المسلمين أدام الله نصره حيث شاء من آلة التشريف
والعز المنيف . وألحتنى من النعماء وأسحبنى أذيالها ، وصرف إلى
من عدده وبلده ما أولانى نعمه ووالانى كرمه ، حفظت تلك الحرمة ،
وشكرت لأستزيد من تلك النعمة ، وأخذت فى الاجتهاد فى الجهاد (ف هـ)
عالقاً بسببه ، آخذاً بمذهبه . وهيأت من ماله عندى جيشه الموضوع بيدي ،
وأجبت داعي الله بأعظم نية على أكرم طية ، لعزمة يميناء رأسها وعلى تقواه
أساسها وأصلها . وسرت عن حاضرة أغر ناطة حرسها الله فى العشر الأواخر
من شهر رمضان المعظم ^(١) بجيش تصم صوامله وتطم كوامله ، رايته خافقة
وعزماته صادقة ، ونبراته على ألسنة السعد ناطقة .

ومررنا من طاعة أمير المسلمين وناصر الدين على جهات سمعت منادينا ،
وتبعت هادينا . وانقادت وراءنا أعداد وأمداد ، برزوا من كون ، وسركوا
عن سكون ، وأنحنا بناحية بيّاسة ، وقد توافد الجمع وملىء البصر والسمع .
وأخذت فى الرأى اخمّره والعزم أضمره والذيل أشمره ، وجددت
الاستخارة لله تعالى والاستجارة به ، وابتهلت إليه داعياً ضارعاً ، وعولت
فى كل أمورى على حكمه خاضعاً متواضعاً .

ولحقنا ببلاد العدو أعادها الله ، فوطئناها من هنالك ، وقد بان
عنوان الأمانة على أعلام بنيان الرتبة ، وسرنا بجيش يفيض فيضاً على أرض تفيض
غيضاً ، ولسبول الخيل إغراق ، ولبروق البواتر إشراق ، وقد نطقت ألسنة
الأعنة بدماء الأعداء ، واشترقت كواكب الاسنة فى عتام القتال ومدت
السيوف شكل نهج ^(١) ، واستقلت الرايات عن كل قبيل قبيل وأفضت

(١) سنة ١٥٠١ مايو سنة ١١٠٨ م .

بنا الخيرة الى المدينة الحصينة « أقايش » قاعدة القطر وواسطة الصدر ، ذات العدد العديد والصور المشيد ، وبدر السابق وشفع اللاحق .

وغدونا يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من شوال ، فدرنا بها دير الحلقة بنقطتها ، واكتنفناها اكتناف الشيخة لسببتها ، وهت القوم ، واتسع البحر عن العوم ، وحازوا وخاموا ، حين راموا ، وجثنا بكل صرب من الحرب ، نخسف عاليها ونسف هاويها . وبلزها بالرماح ، ونهزها هز القصب في أيدي الرياح ، حتى فض اختتم وعرض منه الابهام ، ونجل الله بالنصر وفتحها بالقسر . ونفخ في صورهم ، ودارت دائرة السوء بدورهم ، ومحقتهم السيوف محي الربا ، وأذرتهم ريح النصر فصاروا هبا ، وبطحوا بطح زرع الحصيد ، وبسطوا بسط كلب الوصيد ، وأخذتهم فجأتنا أخذة ، ونبذت بهم سطوتنا نبذة ، ونفروا إلى الأذنان ، وسبقوا إلى الموت والأذنان ، فاكدنا نزل حتى كيدنا ذلك المنزل ، وما أنحننا حتى رضخنا ، ولا وصلنا إليه حتى حصلنا عليه ، فوردنا ما أردنا .

ولما استحر بهم القتل ، واجتث منهم الأصل ، وضاق بهم المزدحم ، وغص ذلك الملتحم ، قصر الوقت المبعث وشغل الأخيد (ف ٥٥) عن الفتل ، وألهى الكثير عمن قل ، ونام الجم الغنير عن القل ، وعادت ^(١) بقاياهم بقصبة المدينة فوجلوها كما يلج العصفور ، ويقوم العثور ، قد غلفوا الأبواب ، وأسدلوا الحجاب ، ونحن نصل الجد ونوحر [^(٢)] لأفل غرب ، ولأمكن حرب ، نجت الجرائم . ونحتز الغلاصم ، ونخرب الديار وبنيانها ، ونهدم البيع وصلبانها ، وتتناحف بهدايا السبايا ، وتتكشف عن بقايا الخبايا ، ونصرح ^(٣) بنيانا صدعته الختوف وغلبته السيوف ، فلا طلاله هدم وعلى رسومه ردم ، حتى علا على الشرك الايمان ، وبذل الناقوس بالأذان ، وزحزحت الهياكل عن موضعها ، وطرح

(١) في الأصل « عادت » .

(٢) كذا في الأصل من غير نقط يعقبه بياض بقدر كلمة .

(٣) في الأصل : وتتناحفوا وتكاشفوا ، نصرحوا ، وهي أخطاء وقع فيها الناس نتيجة للاملاء ، وهذه الظاهرة تدل على أن أهل الاندلس كانوا يصفون على أواخر الكلمات ، وتلك حقيقة نطقية (فونيتيكية) جديرة بالملاحظة .

النواقيس عن بيعها ، ولأذ بنا من هنالك من المسلمين عائدين بنا مستسلمين لنا ،
فناشدونا بالملة وحرمتها ، وكشفوا لنا عن الخلّة وسدتها ، وفروا من الحملة
إلى الحملة ، فأوينا شاردهم ، وأقمنا قاعدتهم ، فأنجابت كُربتهم ، وعادت بعد البوار
ومجاورة الكمار بشرّ دارملتهم ، وأنازلهم الاسلام على منار الإيمان المجرد ،
واشتهر فيهم التوحيد اشتها الحسام المجرد ، وكشف الدين عن مضمرة ،
وخطب الحق المبين على منبره .

وأقمنا بقية يومنا على ذلك إلى أن خام النهار ، وحان من الشمس الاصفرار .
فعند ذلك أرحنا البوار ، وغيمضت تلك الدماء الهوامس (١٥٦) وغدا الخميس
في الخميس ، مبنيّاً على ذلك التأسيس ، يجر أذيال الظفر في العدد الأوفر ،
يشفع الأولى بالتوالى ، ويشترى العولى بالعوالى ، فأصبحنا في عز وأنس ،
وأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كأن لم يغنوا بالأمس .

وتضامت تلك العصبية إلى تلك القصبية ، والقوم في السجن ، والحصن
في الحصر ، كالواحد في العالم . والاصبع في الخاتم ، « والحصور مأسور
وصاحب الحائط مقهور »^(١) ، ولم تزل نوسعهم قتالا ونوسعهم ضرّاً ونكالا
مسافة اليوم إلى أن جزر النهار مدّه ، وبث الليل جنده ، فعدنا إلى محلنا وقد أتمل
الكال أينّه ، وغلبت الساهر عيته ، وكنت لم آل احتراساً للمحلة بطلائع تحرس
جهاثها وتدرأ آفاتها ، وفي القدر ما يسبق النذر ويفوت الحذر ، ولكن
كفاية الله خير من توقينا .

وكان الطاغية^(٢) زاده الله ذلاً قد حشد أقطاره وحشر أنصاره ،
وأبعد في الاستصراخ مضاره ، وعياً جيشاً قد أسرا إلى ذمّر^(٣) ، وانطوى
على غمر ، فأقدم وصمم ، وبئس ما تيمم ، فاستسلمت جماعتهم على ابن الطاغية

(١) يبدو أن هذا كان من الأمثال الأندلسية .

(٢) يريد ألفونس السادس صاحب قشتالة وليون .

(٣) كلمة لم أستلح قراءتها والنذر زار الأسد .

اذفونش^(١) وصاحب شوكتهم البرهانيس^(٢) والقمط بنقندرة^(٣) وقواد
بلاد طليطلة وصاحب « قلعة النسور » و « قلعة عبد السلام » . وكل قاص
ودان ، (٥٩ ف) وماجل وأخزي الله جميعهم ، وقلل نجيتهم ولا أقام صريمهم .
وهذا دعاء لو سكت كُفَيْتُهُ لأنى سألت الله ربى وقد فعل

وطرقوا من طرف مجتمعتهم يريدون اليعرة ، ويظهرون صلغاً تحت الغرة ،
وتقدموا فتندموا ، ودنوا فهروا ، ووصلوا فحصلوا . وأرسل الله تعالى
من جنده فتى كانوا قد سيوه مسيراً واقتنوه أسيراً ، والله تعالى فيه خبئة
أعدها من عنده وبعتها لجنده ، ونزع^(٤) الفتى إلينا من معسكرهم منبثاً بهم
دالا عليهم . وكاشفا بهم عن النبأ العظيم ، ومسطلعا منهم على المقعد المقيم ،
فعند ذلك ثارت ثائرتنا ، وداوت على مركز التوفيق دائرتنا ، وقام القاعد
وأشار البنان والساعد ، وتضام الفريب والمتباعد ، والليل قد هدأ ، والصبح

(١) الإشارة هنا إلى « سانشو » وحيد ألفونس السادس الذى قتل في هذه المعركة .
(٢) البرهانيس من الصيغة العربية للفارس القشتالى المعروف Álvaro Hañes
ابن عم السيد القميطور وعدوه اللدود فيما بعد ، ونصير ألفونس السادس صاحب قشتالة
وايون في كل حروبه ، وقد اشتهر في جميع المواقع التي وقعت بين ألفونس والرابطين ،
وقد كان من كبار فرسان قشتالة في معركة « أقيش » وانهمز مع من انهمز ، وخسر
اقطاعيته في قرية توريتا Zorita حينما استولى الرابيطون على قوطة Guenon بعد
انتصارهم في أقيش ، وقد أقامه ألفونس بعد ذلك حاكماً لطليطلة ، فقام بالدفاع عنها حينما
حاصرها « الرابيطون » في سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م . وقد توفي سنة ١١١٤ م على يد أهل
سقوية Segovia في الحروب التي استمرت بين ألفونسو المقاتل صاحب أرغون والملكة
« أوروكا » صاحبة ليون وقشتالة .

cf: MENÉNDEZ PIDAL: *La España del Cid*, II p. 626

(٣) الإشارة هنا إلى السكونت « جاوشيا ركبراً » García de Cebra مؤدب
الأمير « سانشو » الذى قتل في المعركة .

cf: BALLESTEROS: *Hist. de España* II. p. 323.

(٤) لفظ « نزع » هنا مستعمل استعمالاً خاصاً ، لأن « النزع » في الاصطلاح
الأندلسى هو الجندي الذى يندس في جيش الأعداء أو يدخل معهم حصنهم متكرراً
في زهم حتى يتعرفه أخبارهم أو يثبطهم ، ثم ينزع إلى قومه ساعة الحاجة إليه
أو بعد سقوط الحصن ، وكان في الأنظمة الحربية الأندلسية ديوان خاص لهؤلاء يعرف
« بديوان النزاع » .

فد بدأ . والدجاجير ممدودة السرايق ، مجموعة العيالقي ، ولاجار إلا الفاسق ^(١) ولا مار إلا السما والطارق ، وكنت قد استدفيت القائدين المجربين ذوى النصيحة والآراء الصحيحة « أبا عبد الله محمد بن عائشة » وأبا محمد عبد الله ابن فاطمة ^(٢) وليتي أعزها الله . فجلا في مضمار وساع واضطلاع ، بذرع وذراع ، فاجتمعنا على كلمة الله متعاقدين . وخضعنا إلى حكمه مستسلمين . فعند ذلك حل يده المحتبي ، وقيل يا خيل الله اركبي ، فعادت الآراء بالرايات . وحكمت الهى فى النهايات (١٥٧) والأسنة تجول ^(٣) فى آمادها ، والنصول تصول فى أغمارها . وترنا كما تار الشهم بفرصته ، وطار السهم لغرضته ^(٤) ، وأمرت رجالا بلزوم المحلة فسدوا فرج أبوابها ، ولأذوا بأوتادها وأسبابها ، فداروا بها دور السوار ، وانتظموها انتظام الأسوار ، قد شرعوا الأسد من أطرافها ، وأجالوا البواتر فى أكنافها وأضاقوا الأفنية ، وقاربوا بين الأخبية . وعبأنا الجيش يمينه ويسراه ، وصدره ولهاه ، وساقته وأولاه .

ونهمضنا بجملتنا من محلتنا ، والصبر يفرغ علينا لأمه ، والنصر يبلغ إلينا سلامه ، وتوجهنا إلى الله نفتق سبيله ، ونبتغي دليله ، فما رفع الفجر من حجابيه ، ولا كشر الصبح عن نابه ، حتى ارتفعت ألوية الدين سامية الأعلام ، واتسعت أفضية المسلمين ماضية الأحكام ، وقبض الليل ثمنه ، وفضح الصبح نفسه ، ولسن السنان لمعان ، ولشباب العراك ريمان ، ولاخفاق الأعلام ضراب أو طعان .

(١) أى الدو .

(٢) لم نعلم إلا من هذه الوثيقة أن هذين القائدين المرابطين الكبيرين حضرا هذه المعركة .

(٣) فى الأصل : وإلا يحول .

(٤) فى الأصل من غير نقط ، وقد جاء فى لسان العرب : « وفرصة النهر ثلثته التى منها يستقى ، وفى حديث موسى عليه السلام : « جئى أرفأبه عند فرصة النهر أى مشرعة ، وجمع الفرصة فرس ، وفى حديث ابن الزبير : واجعلوا السيوف المنايا فرسا أى اجعلوها مشارع للمنايا وأمرضوا للشهادة » (ج ٩ ص ٧١) ولهذا قرأناها : فرصة .

وعند ذلك نجم « المعجم » في سواد الليل وإزباد السيل ، يهطعون إلى داعيهم ، ويهرعون إلى ناعيهم ، في دروع كالبورى ، ورماح كالصوارى ، كأنما شجروا بالديد ، وسجنوا في الحديد ، يزحفون والحين يعجلهم ، ويركبون [الموت] يؤجلهم ، يتلمظون تلمظ الحيات (٥٧ ب) قد تحالما أن لا يتخالفوا ، وتبايعوا أن يتشابعوا ، ووصلوا إلى مقدمتنا ، وكان هناك القائد « أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا »^(١) مع جماعة ، فصدمهم العدو بصدر نمر وقلوب أشرة ، فأنحوا بكل كل أورموا بجندل ، وشدوا لفاردر ، وصادروا فسادوا ، وتقهر القائد « أبو عبد الله » غير مؤلٍ وتراجع غير مغل إلى أن اشد منا بطود ، وزحم من جيشنا بعود .

فتراى الجمعان ، وتدانى العسكران ، وأمسكتنا ولائجن ، ووقفنا والأفاة يمن ، فعند ذلك ثار النصر فهدمناه ، وأقى الصبر فأشرق مجياه ، ونزلت السكينة ، وأخلصت القلوب المستكنة ، واهتزت الفياق مائجة ، وهدرت الشفاشق هائجة ، وجحظت العيون غضباً ، وطلبت البواتر سبياً ، وأذن الحديد بالجلاد ، وبرزت السيوف عن الأغمام ، وتساهمت الخيول وتطاولت القبول ، فعند ذلك تواقف القوم كوقفة النهر ، بين الورد والصدر ، فبرز فارس من العرب^(٢) . فطعن فارساً منهم فأدراه من مركبه ، ورماء بين يدي موكه ، فاتهج ، ما ارتج ، وانفتح المبهم وأفصح المعجم ، فعند ذلك اختلطت الخيل ، بل سال السيل ، وأظلم الليل ، واعتنقت الفرسان ، وأندقت الخرصان^(٣) ودجاليل الفتام ، وضاق مجال الخيش اللهام ، واختلط الخسام بالأجسام ، والأرماح (١٥٨) بالآشباح ، ودارت رحي الحرب تغر بنكالها ، وثار ثائرة الطعن والضرب تفتك بأبطالها ، فلتغر الصدر ابتداد ، ولجزم القلوب

(١) هذه هي المرة الأولى التي يرد فيها ذكر هذا القائد المراتبي .

(٢) للمرة الأولى يرد ذكر « العرب » في القتال في الأندلس في ذلك العصر ، والغالب أن نفرأ من العرب الملالين ، الذين كانوا في المغرب إذ ذاك ، عبر مع المراتبين إلى الأندلس لانتراك في الحروب مع الصاري ، وسيترك هؤلاء العرب في تلك الحروب مشكل ظاهراً أيام الموحدين .

(٣) جاء في اللسان (ج ٨ ص ٢٨٧) خرصان : جمع خرس سنان الرمح ، أو هو الرمح نفسه .

انتهاذ، فلا وضّح النهار، ولا مسح الغبار، حتى خضعت منهم الرقاب، وقبلت رؤوسهم الزاب، واتصل الهلك بالشرك، ومادت الضالة إلى الملك، وقلم ظفر الكفر، وطأت أيمان الإيمان، وفر الصليب سلباً، وعجم عود الإسلام فكان طيباً^(١١)، وغمرهم الختف فهدوا، وأطفأهم الحثين فخدموا، ومات جلهم بل كلهم، وما نجا إلا أقلهم؛ وحانوا فبانوا، وقيل كانوا، وكشفت المبهوات. وانجلت تلك المنات، عن رسوم جسوم قد قصفتها البوائر، ووطئت الخوافر، خاضعة الخدود عائرة الجدود، وأخذت ساقتنا في الطلب وضم السلب إلى السلب. وملئت الأيدي بنيل وافي الكيل، خيلا وبغالا وسلاحاً ومالا، ودروعاً أكلمهم حملها، وأنزلهم جملها، فساءت ملبساً وصارت محسباً، فطرحوها كأنهم منجوها، وألقوها كأنهم أعطوها. احتزناها نهياً، وأخذناها كأن لم تكن غصباً، لقطعة ولا نكر، وعطية ولغيرهم شكر، ثم أمرت بجمع الرؤوس، فاحيزت الدانية وزهد في جمع النائية، فكان مبلتها نيفاً على ثلاثة آلاف منهم غرسية أوردونش^(١٢) والقومط (٥٨٠) وقواد بلاد طليطلة، وأكار منهم لم يكمل الآن البحث عنهم^(١٣)، فكانت كالمضرب الجسم، بل الطود العظيم، وأذن عليها المؤذنون، يوحّدون الله ويكبرون، فلما جاء نصر الله، وهب لنا فتح الله، شكرنا مولى النعم ومسديها، ومعيد المني ومهديها، وصدرت غانماً وأبت سالماً، وبقي النامدان محاصرين الحصن أقباش آخذين بمخفرهم، مستولين على رمقهم.

(١١) كذا في الأصل، ولعلها « صليبا ».

(١٢) هو الكونت García Ardoñez قائد قشتالي آخر من كبار من قتلوا في هذه المعركة، وكان من فرسان « سانشو الثاني » ملك ليون ثم أصبح من أتباع الفرنس السادس صاحب ليون وقشتالة، وحارب مع السيد حيناً وضده حيناً، واشترك في معارك كثيرة ضد المرابطين، فكان من المدافعين عن حصن أليبط Aleud. وانهمز أمامهم في معركة « الكراز » Alcoraz، واشترك في الهجوم على سرقةطة بعد ذلك، ثم لقي مصرته في معركة « ألبيس » هذه.

: MENENDEZ PÍÑAL: *La España del Cid*, index

(١٣) هذه العبارة تدل على أن هذا الكتاب كتب في عهد المعركة مباشرة.

نخاطبت أمير المسلمين أدام الله سروره ووصل حبه ، معلما بالأمر ،
مهنيا بالنصر ، لمنحمد الله عز وجل على ما وهب ، ونشكره على ما منى وسبب
والله ينكفل بالزيد ويشفع القديم بالجديد ، ويمن بالنظر والتأييد ، فهو ولي
الامتنان والمولى بالفضل والإحسان ، لارب غيره ولا معبود سواه .

الوثيقة الثانية :

واضح من عنوان هذه الرسالة أنها كتبت بعد سقوط سرقسطة في يد
ألونس المقاتل بسنوات ، وعند مقارنتها بالوثقتين التاليتين يتضح أنهما
نتيجة لها ، ولما كان تاريخهما هو سنة ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م . فلما نستطيع
أن نقرر أنها كتبت في ذلك العام نفسه . ولاشك في أن أهل سرقسطة كتبوا
استغاثات كثيرة مثل هذه ، ولكن شيئا منها لم يصل إلينا ، ومن هنا كانت
قيمتها التاريخية ، إذ أنها صوت الجماعة الإسلامية في سرقسطة بعد أن صارت
في أيدي النصاري بسنوات . وعلى الرغم من إسراف كاتب الرسالة في المحسنات
البدعية وتضييعه علينا بذلك أعم ما كنا ننتظره منه ، وهو وصف حال البلد
في ذلك الحين وصفاً واقعياً مادياً ، كما فعل محمد بن علقمة عند ما وصف لنا حال
أهل بلنسية في يد الريد الفمبيطور في كتابه « البيان الواضح عن الملم الفادح »
بالرغم من ذلك لم تخل الرسالة من إشارات على أعظم جانب من الأهمية ،
وهي علاوة على ذلك تصور لنا حالة اليأس الشامل الذي وقع فيه أهل هذا البلد
بعد أن انقطعت الصلة تماما بينهم وبين إخوانهم المسلمين في كل ناحية ،
ولهذا كله فهي جديرة بالدراسة ، وقيمتها التاريخية عظيمة ، أما قيمتها كنص
أدبي فلا تحتاج إلى بيان .

وقد حاولت أن أعرف على شخصية ثابت بن عبد الله كاتب هذه الرسالة ،
فلم أجده له ذكراً في مراجعتنا الأندلسية ، وهذا هو المنتظر ، لأنه كان من
هذه الجماعة الإسلامية السرقسطية التي قدر لها أن تنفصل عن العالم الإسلامي
انفصالاً تاماً ، وتختفي في العالم النهراني شيئاً فشيئاً .

رسالة *

كتب بها قاضى سرقسطة والجمهور فيها إلى
الأمير أبى الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين^(١)
حين حاصرها ابن رذرمير^(٢) واستغلها^(٣) أعادها الله

من ماترى طاعة سلطانه ومستعجديه على أعداء الله ثابت بن عبد الله^(٤)
وجاعة سرقسطة من (الجمهور)^(٥) فيها من عباد الله .

أطال الله بقاء الأمير الأجل ، الرفيع القدر والمحل ()^(٦) لحرم الاسلام
يمنعه (١٥٩) ()^(٧) من كرب عظيم على المسلمين يزيحه عنهم ويدفعه .

(كـ) ابنا أيدك الله بتقواه ، ووفقك لاشترائك دار حسنة بمجاهدة عداه ،
يوم الثلاثاء السابع عشر من الشهر المبارك شعبان^(٨) ، عن حال قد عظم بلاؤها ،
وأدلهمت ضررها ، فنحن في كرب عظيم وجهد أليم ، قد جل العزا (ع) وعظم
الخطب ، وأظلم الملاك والعطب ، فيا عوناه ! ثم يا غوثنا ! الى الله دعوة () تن

* صفحة ٨٠ ب مخطوط رقم ٤٨٩

(١) حامل الأندلس إلى بن يوسف بن تاشفين في ذلك الحين .

(٢) ويكتب في بعض النسخ : « ابن ردهير » و « ابن رذمير » وهى صيغة أقرب
إلى الصحة ، لأن الصيغة الأصلية لهذا الاسم Rudimir وهو من أسماء الجرمان ،
وقد حرفة الاسبان إلى Ramiro ، فالصيغة العربية لى هذا أقرب إلى الأصل الجرمانى
من الصيغة الاسبانية . والمراد بابن « رذمير » هنا الفونسو الأول ملك أربون وايون
وقشتاله الملقب « بالمقاتل » El Batallador .

(٣) أى « واتولى عليها » مما يدل على أن هذا الكتاب كتب بعد سقوط البلد
في يد الصارى سنة ٥١٢ هـ .

(٤) ليست لدينا أى معلومات عن هذه الشخصية ، وواضح أنه قاضى البلد ، مما يدل
أن على قاضى البلد كان لا يزال معتبراً رئيس جاعتها كما كان الحال في المدن الاندلسية .

(٥) في الأصل : « الجبل » .

(٦) هنا كلمة ناقصة في معنى « حامية » .

(٧) يضاف إلى الأصل ، الكلمة النقص في معنى : « ودرعا » .

(٨) لم يحدد لنا الكتاب السنة التي كتب فيها ، والثالث أنه صدر بن سني

٥٣٠ — ٥٢٣ هـ ، لأن الرد عليه تاريخ سنة ٥٢٣ هـ .

دعاه^(١) وأثله لدفع الضرر ورجاه ، سبحانه المرجو عند الشدائد ، الجليل الكرم والعوائد ، يا لله ! والاسلام ! لقد انتهك حماه ، وفضت عراه ! وبلغ المأمول من يرضته تداه ، ويا حسرتاه على حضرة قد أشقت على شفى الهلاك ! طالما عمرت بالايمان وازدهت باقامة الصلوات وتلاوة القرآن ، ترجع مراتع للصليان ومشاهد ذميمة لعبدة الأوثان . ويا ويلاه على مسجد جامعها المكرم ! وقد كان مأثوساً بتلاوة القرآن المعظم ، تطؤه الكفرة التساق بذميم أقدامها ، ويؤملون أن يندسوه بقبیح آثامها ، ويعمروه بعبادة أصنامها ، ويتخذوه معان لننازيرها ومواطن لخماراتها ومواخيرها^(٢) . ثم يا حسرتاه ! على نسوة مكنونات عذارى ، يُعدن في أوثاق الأسارى ، وعلى رجال أصبحوا حيارى بل هم سكارى وما هم بسكارى ، ولكن الكرب الذى دهمهم شديد والضر (٥٩ ب) الذى مسهم عظيم جهيد ، من حذرهم على بنيات — كن من الستر نجبار الوجوه^(٣) — أن يروا فيهن السوء والمكره ، وقد كن لا يدون للنظار ، فالآن حان أن يبرزن إلى الكفار ، وعلى صبية أطفال قد كانوا نشبوا في حجور الايمان ، يصيرون في عبيد الأوثان أهل الكفر وأصحاب الشيطان . فما ظنك أيها الأمير^(٤) بمن يلوذ به بعد الله الجمهور بأمة هي هي وقايد هذه العظام القادحة والنوائب الكالحة ؟ هو المطالب بدمائها إذ أسلمها

(١) كذا في الأصل ، والغالب أن صحة القول ناقص : « مؤمن » .

(٢) هذا يدل على أن مسجد سرقندة الجامع كان قد تم تحويله إلى كنيسة قبل تاريخ الخطاب ، أي قبل سنة ٥٢٣ هـ . مما يدل على أن القونسيو المقتل لم يكذب يدخل البلد حتى خاف الشرط التي كان قد طامد المسلمين عليها .

(٣) كذا في الأصل ، وإمل صحتها : « نجيبات » أو « مخدرات » .

(٤) هنا يبدأ الجزء الثاني من الخطاب : جزء مهجة المرابطين ولومهم وتحميلهم مسؤولية كل ما يصيب الاسلام في ارضدلس من المصائب . وقد كانت الاندلسيين على المرابطين جرأة بانفت حد الالهية في كثير من الأحيان . واضمح أن الاندلسيين لم يكونوا يحترمون المرابطين ، بل كانوا يكرهونهم ، ولم يكونوا يتوجهون اليهم في طلب العون إلا تحت ضغط الحاجة .

في آخر ذمائها، وتركها أغراضاً لأعدائها، حين أحجم عن لقاءها^(١)، قال الله بك المشتكى ثم إلى رسوله المصطفى ثم إلى ولي عهده أمير المسلمين المرتضى، حين ابتعثك بأجناده وأمدك بالجم الغفير من أعداده نادياً لك إلى مقارعة العدو المحاصر لها وجهاده، والذب عن أوليائه المعتمدين بحبل طاعته والمتجملين بالسبعة الأشهر الشدائد الهائلة في جنب موالاته ومشايعته، من أمة قد نهكهم ألم الجوع وبلغ المدى بهم من الضراوحيق، قد برح بهم الحصار، وقعدت عن نصرتهم أنصار، فترى الأطفال يل الرجال جوعاً يبحرون، يلوذون برحمة الله ويستغيثون، ويمنون بمقدمك بل يتضرعون، حتى كأنك قلت اخسأوا فيها ولا تكلمون! وما كان إلا أن وصلت وصل الله بك بتقواء على مقربة من هذه الحضرة، ونحن (١٦٠) نأمل منك بحول الله أسباب النصر بتلك العساكر التي أقر الله بهاؤها وسر النفوس زهاؤها، فسرعان ما انتهيت وما انتهت! وارعويت وما أدنيت أخائباً عن اللقاء ناكصاً على عقيلك عن الاعداء، فما أوليتنا غنائاً بل أوليتنا بلاءً وعلى المدا داء بل أدواء، وتناهت بنا الحال جهداً والتواء بل أذلت الاسلام والمسلمين واجترحت فصيحة الدنيا والدين!

فيا لله ويا الاسلام! لقد اهتمم حرمة وحماء أشد الاهتمام! إذ أحجمت أنصاره عن إعزازه أقبج الاحجام، ونكصت عن لقاء عدوه وهو في فئة قليلة وأمة رذيلة، وطائفة قليلة يستنصر بالصلبان والأصنام، وأنتم تستنصرون بشماير الاسلام، وكلمة الله هي العليا ويده الطولى، وكلمة الذين كفروا السفلى، وإن من وهن الايمان وأشد الضعف الفرار عن الضعف، فكيف عن أقل من النصف^(٢)؟ فما^(٣) قبج من رضى بالعفار وسيم^(٤) خطة

(١) هنا يدعى أهل سرقة على المراطين تهمة لا أساس لها: تهمة الاحجام عن لقاء العسارى، وقد أثبتنا في المقال أن المراطين بذلوا في سبيل الاسلام الأندلسي ما لم يذله غيرهم، وقد كانت الحرب بينهم وبين الموحدين إذ ذاك على أشدها، وقودهم عن عون سرقة إنما كان سببه سوء ظنهم، لا الاحجام عن لقاء العسارى. وسرى من بقية الخطاب، أنهم حاربوا اعاد البلد رغم ذلك.

(٢) ربما أمانتنا هذه الانتارة على تحديد تاريخ هذا الخطاب.

(٣) كذا في الأصل، والغالب أن سميتها: «فيا».

(٤) في الأصل «وسيم» وهي غلطة وقع فيها الناصح نتيجة الاملاء، وهي تؤيد ما أشرنا إليه من منط الأندلسيين على أواخر الكلمات.

المخسف ، فما هذا الجبن والفرع ؟ وما هذا الهلع والجزع ؟ بل ما هذا العار والضبع ؟ أتخسبون ^(١١) يامعشر المرابطين ، وإخواننا في ذات الله المؤمنين ، إن سبق على سرقة السرقة القدر بما يتوقع منه المكروه والحذر ، أنكم تبلعون بعدها ريقاً ، وتجدون في سائر بلاد الأندلس — عصمها الله — مسلحاً من النجاة أو طريقاً ؟ كلا ! والله ليسومنكم الكفار عنها جلاء وفراراً (٦٠ ب) ! وإيخرجنكم منها داراً فداراً ! فسرقة حرسها الله هي السد الذي إن فسق فسدت بعده أسداده ، والبلد الذي إن استبيح لأعداء الله استبيحت له أقطار وبلاد !

فالآن ^(١٢) أيها الأمير الأجل ! هذه أبواب الجنة قد فتحت ، وأعلام الفتح قد طلعت ، فالثنية ولا الدنية ! والنار ولا العار ! فأين النفوس الأبية ؟ وأين الأئمة والحجبة ؟ وأين الهمم المராيطية ^(١٣) ، فلتقذح عن زنادها بانتضاء حدها ، وامتناء جدها واجتهادها ، وملافة أعداء الله وجهادها ، فإن حزب الله هم الغالبون ، وقد ضمن تعالى لمن يجاهد في سبيله أن ينصره ، ولمن جأى عن دينه أن يؤيده ويظهره ، فما هذا أيها الأمير الأجل ؟ ألا ترغب في رضوانه واشتراء جناته بمتمارعة حزب شيطنة ، والدفاع عن أهل إيمانه ؟ فاستعن بالله على عدوه وحربه ، وأعمد ببصيرة في ذات الله إلى إخوان الشيطان وحزبه ، فانهم أغراض للمنايا والخوف ، ونهز للرماح والسيوف ، ولا ترض بخطة العار ، وشو الذكر والصيت في جميع الأمصار ، ولا تكن كن قيل فيه :

يجمع الجيش ذا الألوف ويعزرو ولا يرزا من العدو فتيلاً

ولن يسمك عند الله ولا عند مؤمن عذر في التأخر والارعواء ، عن مناجزة الكفار والأعداء ، وكتابتنا هذا أيها الأمير اعتذار تقوم لنا به الحجة

(١١) هنا يلجأ أهل سرقة السرقة إلى تهديد المرابطين وتخويفهم ، وهي خطوة بعد اليوم والتأنيب .

(١٢) هنا يعود السرقة طيرون إلى الرجاء والاستعفاف . وواضح أن كاتب الخطاب كان دحلاً ماهراً لبقاً ، يعرف كيف يجمع في كتابه كل ما عساه أن يستهزئ الهمم ويشير النفوس .

(١٣) لاحظ هذه العبارة وما بعدها .

في جميع البلاد ، وعند سائر العباد ، في إسلامكم إيانا إلى أهل الكفر والحاد .
ونحن مؤمنون بل موقنون من إجابتكم إلى نصرتنا ، وإعذارك إلى الدفاع
عن حضرتنا ، وأنت لا تتأخر عن تلبية ندائنا ودعائنا ، إلى استنقاذنا من أيدي
أعدائنا ، فدفاعك إنما هو في ذات الله وعن كلمة (الدين وربّه) ^(١) ، وعاماتك
عن الاسلام وحزبه ، فذلك التّخّر الأنبل لك في الأخرى والدنيا ،
ومورث لك عند الله المنزلة العليا . فكم تحيي من أمم ، وتجي من كروب وغم

وإن تكن منك الأخرى ، وهي الأبعد عن متانة دينك وصحة يقينك ،
فأقبل بمسرك على مقربة من سر قسطة — عصمها الله — ليخرج الجميع عنها ،
ويبرأ إلى العدو وقره الله منها ^(٢) . ولا تتأخر — كيفما كان — طرفه عين ،
فالأمير أضيّق ، والجبال أزهرق ، فعدّ بنا ^(٣) عن المظل والتسويق ، قبل وقوع
المكروه والخوف ، وإلا فأنتم المطالبون عند الله بدمائنا وأموالنا ، والمسؤولون
عن صيبتنا وأطفالنا ، لاحتجامكم عن أعدائنا ^(٤) ، وتثبطكم عن إجابة ندائنا ،
وهذه حال نبيذك أيها الأمير الأجل عنها ، فإنها تمحّلك من العار ما لم تحمله
أحدًا ، وتورثك وجميع المرابطين الحزى أبدًا ، فأنه الله اتقوه وأيدوا
دينه (٦١ ب) وانصروه ، فقد تعين عليكم جهاد الكفار ، والمذب عن الحرّيم
والديار . قال الله : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار
وليجدوا فيكم غلظة ... » الآية ، وقد برّتم بإسلامنا للاعداء من نصر الاسلام ،
وعند الله لنا لطف خفي ، ومن رحمته يتولّى (الصنع) الحيفي ، ويغنيننا
الله عنكم ، وهو الحميد الغني !

(١) أسفت هذه العبارة ليستقيم السياق .

(٢) هذه إشارة مهمة ، فقد كان المخرج من المدينة يباح لمن أراد من المسلمين ،
من هؤلاء كانوا يخشون أن يخطئهم المموس وجد الصمدى في الطريق . ، وقد حدثت
ذلك كثيراً ولم لهذا يرجون أن يقترب من البلد جيش سراجلي ليخرجوا من البلد ويسيروا
إلى بلاد الاسلام في جهاد .

(٣) في الأصل : فعدنا .

(٤) في الأصل : إعدادتنا .

ومن متحملي كتابنا هذا ، وهم ثقافتنا ، تقف من كنهه حالنا على ما لم يحضمنه الخطاب ولا استوعبه الاطناب بمنه^(١) وله أنم الطول في الأصفاء إليهم ، واقتضاء مالدتهم إن شاء الله تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته^(٢).

الوثيقة الثالثة :

من الواضح أن هذا الخطاب إنما أمر على بن يوسف بكتابته بعد أن وصله خطاب أهل سرقسطة السابق ، وبعد أن كتب إليه القائد أبو محمد بن أبي بكر ابن سير يصف له لقاءه مع النصاري عند « الفلعة » ويعتذر عن هزيمته أمامهم على النحو الذي بينته في مقدمة الوثيقة السابقة .

والكتاب من إنشاء الكاتب الأندلسي المعروف مروان بن أبي الحصل أعظم النثرين الأندلسيين في ذلك الحين ، وواحد ممن انتهت إليهم زعامة النثر الفني في تاريخ الأدب الأندلسي كله ، وقد وصفه المقرئ في « نفح الطيب » بقوله : « رئيس كتاب الأندلس » وذكر أن له مؤلفاً يسمى « كتاب مزاج الأدب » ، صنعه على منزع كتاب « النوادر » لأبي علي (القالي) وزهر الآداب للحصري (القيرواني) (انظر ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ١٢٤) ووصفه مرتين « بالوزير » ممجداً على أنه كان على الأقل من كبار رجال بلاطات الأندلس في عهده . « أمراء الطوائف » والمرايطين ، وذكره « ابن حزم » في « رسالته » مفخراً المشاركة بترسيطة (المقرئ ج ٢ ص ١٣٠) .

وربما استطعنا أن نستنتج من هذه الوثيقة نتيجة هامة لم نشر إليها المراجع ، وهي أن ابن أبي الحصل كان في ديوان الانشاء المرابطي ، وكان يقيم في مراكش في بلاط « علي بن يوسف » ولم يشتر واحد ممن ترجوا للرجل إلى ذلك .

(١) هنا كلمة لم أستطع قراءتها ، وربما هكذا : منه . والثالث أن الناسخ أمثل
هنا عبارة في معنى : ورجائنا أن يتفضل الأمير علينا بمته .

(٢) هنا يقف الخطاب ، وكان يودنا لو عرفنا من جهة « متجملو » الخطاب وصف
حوال أهل سرقسطة في ذلك الحين بنى من التفصيل .

وصدور الكتاب عن « أمير المسلمين » نفسه يدل على أنه كان مشرفاً
إشرافاً مباشراً على أمور الأندلس في ذلك الحين ، وأن الكتب التي كانت
تصل إلى أخيه أبي الطاهر تميم مامل الأندلس كانت تحوّل إلى رئيس الدولة
المرابطية لينظر فيها بنفسه .

ونص الكتاب يدل على اهتمام « علي بن يوسف » بشئون الأندلس رغم
الظروف العصيبة التي كانت تحيط به وبدولته في ذلك الحين . وتلك حقيقة
هامّة تؤيد ما قلناه في هذا الأمير المrabطي العظيم ، وتدحض ما ذهب إليه
دوزي وسيمونيت وكوديرا وميتندز بيدال في حقه ، وتؤيد كذلك ما قرناه
من أن المrabطين ، كالأتراك العثمانيين ، كانوا يعتقدون أن مهمتهم الأولى
هي الدفاع عن حرمة الإسلام .

أما « زينة المrabطين وقائدهم في هذه الجهة الشرقية محمد بن أبي بكر بن سير
عند « القلعة » أو « التلعة » — وهي لغة أندلسية في نطق هذا اللفظ — فحقيقة
جديدة لم نعرفها إلا عن طريق هذه الوثيقة والتي تليها ، ولا بد أنها كانت
إحدى المواقع الكثيرة التي وقعت بين « المrabطين » والنصارى في طول
الأندلس بعد استيلاء الفونس المقاتل على سرقسطة ، إذ أن المrabطين لم يكفوا
عن محاولة استعادة سرقسطة ، وكانوا لا يتوقفون طاماً واحداً عن إرسال
البعوث إلى ناحيتها ، وليس لدينا مع الأسف الشديد أى تفاصيل دقيقة
عن هذه الاشتباكات ، لأن شبه الجزيرة ككل تحولت إلى ميدان حرب رهيب
يقتتل المrabطين مع النصارى في كل ناحية من نواحيه ، وكانت أعداد المrabطين
كبيرة نوعاً ما ولكن حالتهم المعنوية كانت قد ساءت بسبب اضطراب أمور
دولتهم في إفريقية وإغراق الأندلسيين المسلمين عليهم ، فكانوا يرتدون عن اللقاء
في كثير من الأحيان . وهذه الوثيقة تعين لنا تاريخ إحدى المحاولات لانقاذ
الأندلس ، ومحدد لنا تاريخها وتصفها لنا وصفاً لا بأس به . ولم يستعد المrabطون
نبااتهم في الأندلس إلا في سنة ٥٢٤ هـ حينما عبر على بن يوسف بنفسه عبوره
الرابع الأخير لكي يخلص أمر ممتلكاته الأندلسية بعد أن أشرفت على الضياع .

رسالة*

كتب بها أمير المسلمين إلى الأمير الأجل
أبي محمد ابن أبي بكر هزيمة « القلعة » رحمهما الله ^(١)

كتابنا وفقى الله رأيك وحسن هديك ، ولا أمال عن الهدى والرشد
سعيك ، من حضرة مراکش حرسها الله في السابع من شعبان المكرم سنة
ثلاث وعشرين وخمسة مائة . وقبله وافى ^(٢) كتابك تذكر فيه الميلة التي كانت
للعدو — دمره الله — عليك في اليوم الذي واجهتموه فيه ^(٣) ، بعد أن كان لكم
صدره وأتيح لكم نصره ، فأواخر (الأمور) ^(٤) أبداً أو كد وأهم ، والعواقب
هي التي تمجد أو تدم ، وإذا حسنت خواتم الأعمال فالصنع أهي وأنتم ،
وإن لسان العذر بذلك لحال لقصير ، وإن الله على ذلك المشهد المضيّع لمطلع بصير :
تواقفتهم مع عدوكم ، وأنتم أوفر منه عدة وأكثر (١٧٢) جمعاً ، وأحرى
أن تكونوا أشد عن حربكم منعاً ، وأقوى دونه دنعاً ، فثبت وزلائكم ، وجد
ونكلتم ، وشد عقد عزيتم وحلائكم ، وكنتم في تلك الوقعة قرة عين الحاسد
وشماعة العدو الراصد ، وقد كانت نصبة ^(٥) توليكم بين يديه بشيعة ^(٦)
هائلة ، ودعامتكم لولا انثناؤه عنكم مائلة ، فشغله عنكم من غررتهم
من الرّجل ^(٧) الذي أسلمتموه للقتل ، وقررتهم ، ونصبتهم دريئة للرمح
ثم طرتم ، ولولا مكان من أوردتموه من المسلمين ولم تصدروه ، وخذلتهم

* صفحة ٧١ ب مخطوط رقم ٤٨٩

(١) ورد في الهامش الأمير من النص : كتاب السكان الأجل . . . سرعان
ابن أبي المصالح [رحم] الله عليه . صح .

(٢) وفي الأصل : وافا .

(٣) إشارة إلى هزيمة « القلعة » التي ذكرناها .

(٤) وردت كلمة « أواخر » في آخر السطر بـ « تورأرها » ، وقد أضفت كلمة « الأمور »

ليستقيم السياق .

(٥) كذا في الأصل ، ولعل صحتها : « قصة » .

(٦) كذا في الأصل .

(٧) هذه الإشارة هامة . إذ من الثابت أن المراكطين تخلوا عن المطوعة وتركوا

يصلون منيران المدد وحدهم في بعض المواقع .

من المجاهدين ولم تنصروه ، لانكشف دون ذلك الرماح جنتكم ووقاؤكم ، وأصبحت بها ظهوركم واقعة فيكم ، عاقبتكم الله بما أنتم أهل له ، فأنتم أشجع الناس أقفاء وظهوراً ، وأجبنهم وجوهاً ونحوراً ، ليس منكم من تدفع به كريمة ، ولا عندكم في الرشد روية ولا بديهة ، فتي وأي وقت تفلحون ؟ ولأي شيء بعد ذلك تصلحون ^(١) ؟ ونحمد الله عز وجهه كثيراً . فقد دنع بفضل الأهم الأكر ، وأجرى بأكثر السلامة القدر : فاكشفوا بعداً أعطية أبصاركم ، وقصروا حل اشتراككم ، والبسوا منه ^(٢) جنة حذاركم ، واعلموا أن وراء مجازاتنا إياكم جزاءً توفونه ويوماً عصيباً تلقونه ، فكونوا بعد هذه الهناة لداعي الرشد بين مطيع وسامع ، ومن كلمة الاتفاق والتآلف (ب ٧٢) على أمر جامع ^(٣) ، فانكم لو [خلصت غيوبكم] ^(٤) حسنت سريرتكم ، واطمأنت على التقوى قلوبكم ، لظهر أمركم وعلا حدكم ، ولما ذهب ربحكم ولا أخل ^(٥) جدكم ، فتوخوا في سبيل الله وطاعته أخلص النيات وأصدق العزمات ، واثبتوا أحسن الثبات ، وكونوا من الحذر والتقوى على مثل ليلة الليات . . . وقد ذكر أن العدو دمره الله مدد يأتيه من خلقه ، والله يقطع به ، فلتضعوا على مسالكه عيوننا تكللاً ، ولتكن آذانكم مصيخة لما يطرأ ، فان كان له مدد كما ذكر قطعتم به السبيل دون لحاقه ، وأقمتم الحزم على ساقه ، والله تعالى يفتح لكم فيهم الأبواب ، ويأخذ بأزمته إلى الصواب ، إنه الحميد المجيد ، لا إله غيره .

(١) هذه العبارة تذكرنا .

(٢) في الهامش : مناه ص ٥٠ .

(٣) هذه الإشارة تدل على أنه حدث في جيش المسلمين شقة قبل هذه الواقعة أو أثناءها ، والغالب أن يكون هذا الشقة قد وقع بين الأندلسيين والمراطين ، وهذه ظاهرة متكررة كثيراً في تاريخ الجهاد في الأندلس ، وقد ظهرت بشكل واضح في مجز المسلمين عن الاستيلاء على حصن « لبيط » وتظهر في أسوأ صورها في هزيمة المسلمين الكبرى يوم « المقاب » في عصر الموحدين .

(٤) يضاف في الأصل ، وقد أضيفت هذه السارة ليستقيم السياق .

(٥) في الأصل : ولا أخل .

الوثيقة الرابعة :

صدر هذا الخطاب عن علي بن يوسف بعد كتابه السابق بأريمة أيام غسب ، وهو يتعلق بهزيمة « الفلعة » التي دارت عليها الوثيقة السابقة ، ومن أسفر أن الخطاب الذي تشير إليه ، وهو الذي يصف فيه أبو الطاهر تميم ما جرى في يوم « السلة » قد ضاع ، ولكننا نستطيع أن نستنتج أن القائم المراتبي أقر بالهزيمة وحاول تبريرها في خطابه إلى أميره ، ولكن علي بن يوسف لم يأخذ بمعاذيره وكتب إليه يلومه في أسلوب عنيف قاس ويفهم من نص الخطاب أيضاً أن صدر اليوم كان للمرابطين ، وأن الهزيمة دارت عليها في نصفه الثاني ، وهذه ظاهرة كثيرة التوارد في مواقع المراتبين ، وتعليلها بسيط : وهو أن المراتبين كانوا يجمعون بحماس شديد فيزبون العدو عن مواقعه لأول وهلة ، ولما كانوا يحاربون من غير دروع ثقيلة في حين أن خصومهم كانوا لا يدخلون المعركة إلا مدرعين تدريباً كاملاً فقد كان من الطبيعي أن تكون نسبة قتلاهم خلال الساعات الأولى عالية جداً ، ومن ثم كانت صنوفهم تتداخل ولا يستطيعون الثبات في نصف المعركة الثاني .

وهذه الرسالة على صغرها عظيمة الدلالة ، نستطيع أن نستنتج منها نتائج هامة فيما يتصل بموقف علي بن يوسف من الأندلس واهتمامه بمصيره في ذلك العام . والوقائع التاريخية كلها تؤيد ذلك ، وفيما يتصل كذلك بأسلوب الخطاب الذي كان يجري عليه ديوان الأبناء المراتبي في مخاطبة القوائم . وكاتب الخطاب هو أبو الخصال ، ونلاحظ أنه بالغ في إهانة المراتبين على عهد الأندلسيين ، في الكتابة عنهم ، وعند عبد الواحد المراكشي خطابات تشبه هذا من ناحية الروح والأسلوب ، بل يبلغ من قوة أسلوب الخطاب ذات مرة أن غضب علي بن يوسف على الكاتب . وربما فهمنا من ذلك أن « علياً » لم يكن يقرأ هذه الكتب قبل إرسالها . وطبيعي كذلك أنه لم يكن ليفهم هذا الكلف اللغوي الذي كان كتاب الأندلس في ذلك العصر يسرفون فيه .

رسالة

وله إلى المذكورين ^(١) مجاوبا لهم بهزيمة
ابن رذمير إياهم في « القلعة » ^(٢)

كتبنا أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه وكنفكم بعصمته وجعلكم في حماه
وأسيغ عليكم عوارفه ونعماءه ، من حضرة مراکش حرسها الله في الحادى عشر
من شعبان المكرم من سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، غب ما وافانا
كتابكم الأثير ، مضمنا وصف اليوم الذى جرت به خزية المفادير ، فاستعرضناه
وتقرر لدينا جميع ما حواه ^(٣) ، وفي علمه سبحانه موقع ذلك لدينا وعزازة
شأنه علينا ، لكن لا نخرج عن القضاء وحكمه ، ولا نحيد عن القدر وحتمه ،
ولن يرد حول محتال ما سبق في علمه ، وما ألونا - - وهو عز وجهه أعدل
الشاهدين - - جدأ وعزما وكدحا لاعلاء كلمة الاسلام ، وحزما يبذل الأموال
وتخير الرجال واعتيام الأسلحة والأفراس ، والجميع بن الإيماش والايئناس
في الوعد والوعيد والتخصيص والتأكد ، وعرض الآراء المتخيل فيها السداد
وبلوغ مد () لمة جهاد في كل نحو والاجتهاد لو كان العون موجوداً
ولم يكن التعذير () صير ^(٤) حاضراً عتيداً ، والله يخزى كل خائن ماين
بأسخايطه تعالى داین جزاه ، ويرديه بُرد مضمسره ورداه ، ويوشك مقارضته
وإرداه بحوله وطوله ، وبالله القسم الأعظم لو أمكننا أن نكون لديكم حاضرين
لأسرعنا بذلك مبادرين (١٧٤) ولما ثانا عن حمايتكم بنفسنا ثان ، ولا قعد

* صفحة ٧٣ ب مخطوط ١٨٩ .

(١) أهل سرقسطة الذين كتبوا اليه (الوثيقة الثانية) .

(٢) كذا في الأصل ، وهي صيغة في « القلعة » . و « القلعة » على مقربة من عرناطة .

(٣) في الأصل : نواه .

(٤) خرم في المخطوط .

بنا عن معالجة نصركم تراح ولا توان . وقد جددنا الآن أحثّ نظر ونحى
نردفه بما يكرن عليكم أنتم^(١) وأريد وأُسرع منتظر ، فلتهدأ ضلوعكم
ويسكن مروعكم، فإلنا والله يشهد هم سوى الذباد عنكم والدفاع ، والانتقاد ،
لذلك والاستجاء ، والاجتهاد ، والتوفر عليه بأنتم الاضطلاع ،
والله عز وجل المعين المنجد ، فلم يزل يعضد على ما يرضيه ويؤيد ، لا إله إلا هو .

(١) في الأصل : أأ

٩٢ / ٧٠٦٤	رقم الإيداع
977 - 5365 - 02 - 3	الترقيم الدولي

الأندلس في عصر المرابطين

